معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم ومَنْهَجُه الوجداني

دراسة موضوعية تركز على القرآن الكريم معجزة النبي الكبرى ومنهجه الوجداني

تأليف

صلاح الدين محمد شمس الدين الأزهري
زمخشري بن حسب الله طيب
تيان رفيدة
تونانج حسن لوبيس

دار النشر
مطبعة جامعة دارماونجسا - إندونيسيا

يتكون هذا الكتاب من ثلاثة فصول، حيث بيدأ بمقدمة البحث وينتهي بخاتمة البحث. وتناول الكتاب في الفصل الأول "حياة العرب قبل الإسلام"، حيث تناول فيه تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وأهاليها الساميين وقبائلهم العربية . ثم تناول في الفصل الثاني حياة النبي في مكة والمدينة، ثم تناول في الفصل الثالث معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم ومنهجه الوجداني.

إن الهدف الأساسي من إعداد هذا الكتاب هو أن نقدم مرجعا علميا معتمدا يعتمد عليه المعلمون والطلبة من الجامعات الإسلامية والعربية في دراساتهم العربية والإسلامية، بدلا من أن يجدوا أنفسهم في حيرة بوجود بحر من الكتب التي دونت في هذا الموضوع.

فهذه دراسة متواضعة، نرجو أن تكون دراسة موضوعية شاملة تغطي جميع جوانب الموضوع، فبذلنا فيها قصارى جهدنا لنقدم البحث في أجمل وأشمل صورة من حيث الفكر والمنطق، فإن وفقنا فهذا بفضل من الله، ونرجو منه سبحانه وتعالى أن يقبل منا هذا الجهد المتواضع، وينفعنا وينفع الدارسين لهذا البحث.

ISBN 978-634-96379-1-6
9 786349 637916

معجزة النبي الكبرى
القرآن الكريم
ومَنْهَجُه الوجداني

معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم
ومَنْهَجُه الوجداني

صلاح الدين محمد شمس الدين الأزهري

زمخشري بن حسب الله طيب

تيان رفيدة

تونانج حسن لوبيس

Jndhar press

معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم ومَنْهَجُه الوجداني

المؤلفون

صلاح الدين محمد شمس الدين

زمخشري بن حسب الله طيب

تيان رفيدة

تونانج حسن لوبس

المحرر

زمخشري بن حسب الله طيب

دار النشر

مطبعة جامعة دارماونسا

(عضو في جمعية ديار النشر الأندونيسية)

الطبعة الأولى

رقم الترقيم الدولي: **978-634-96379-1-6**

حقوق الطبع محفوظة لدى المؤلفين ودار النشر

يمنع إعادة الطبع أو النسخ أو التسجيل لجميع أو بعض الأجزاء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال إلا بترخيص رسمي من المؤلفين أو دار النشر

محتويات البحث

الرقم..... **الصفحة**

محتويات البحث.....ج

مقدمة البحث..... **1**

الفصل الأول: حياة العرب قبل الإسلام..... **11**

أولًا: تاريخ الجزيرة العربية..... 12

1. بلاد العرب الحجرية..... 13
2. بلاد العرب الصحراوية..... 13
3. بلاد العرب السعيدة..... 14
4. جاهلية العصر الجاهلي..... 15
5. العرب الساميون وقبائلهم العربية..... 18
6. العرب الشماليون وعصبياتهم القبلية..... 19
7. طبقات العرب في الجاهلية..... 20

أ. طبقة العرب البائدة..... 20

ب. طبقة العرب العاربة..... 21

ج. طبقة العرب المستعربة..... 21

8. النظام القبلي في الجاهلية..... 22

1. التكامل والتحالف بين القبائل..... 22
2. الندوة أو البرلمان القبلي..... 24
3. القبائل والسيادة فيها..... 24
4. أفراد القبائل وواجباتهم نحو المجتمع القبلي..... 25

ثانيًا: ديانات العرب ومعبوداتهم قبل الإسلام..... 26

1. الديانة الوثنية لعرب الجاهلية..... 26

2. نظرة على ضلالات شعوب العالم قبيل الإسلام..... 29
الفصل الثاني: حياة النبي ﷺ في مكة والمدينة..... 35
1. نسب النبي ﷺ..... 36
2. أسرة النبي ﷺ..... 37
3. ميلاد النبي ﷺ..... 41
4. رحلة النبي ﷺ إلى الشام..... 43
5. نكاح النبي ﷺ وخديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)..... 44
6. تجديد بناء الكعبة المشرفة..... 45
7. النبي ﷺ في حراء قبيل البعثة..... 46
8. بعثة النبي ﷺ وبدء الوحي..... 47
9. الدعوة إلى الإسلام..... 48
10. نظرة على العهد المكي لحياة النبي ﷺ..... 50
11. هجرة النبي ﷺ إلى يثرب..... 53
12. حياة النبي ﷺ في يثرب وتأسيس مجتمع جديد..... 56
13. وثيقة التعاون والتضامن بين أهالي يثرب..... 58
14. غزوات النبي ﷺ في العهد المدني.....60
15. الخسائر البشرية في الاشتباكات.....66
16. الغزوات النظامية..... 67
1. غزوة بدر الكبرى 68
2. غزوة أحد..... 69
3. غزوة الخندق أو الأحزاب..... 71
4. غزوة بني قريظة..... 72
5. غزوة خيبر..... 73
6. غزوة مؤتة..... 73

7. فتح مكة..... 73
8. غزوة حنين..... 74
9. غزوة تبوك..... 75
10. قائمة الخسائر البشرية في الغزوات.....76
11. وجه آخر للصورة..... 79
12. عام الوفود..... 80
13. حجة الوداع..... 80
14. وفاة النبي ﷺ..... 81
الفصل الثالث: معجزة النبي ﷺ الكبرى القرآن الكريم ومنهجه الوجداني..... 83
تمهيد..... 84
أ. المنطق الأرسطي وتأثيره في علم الكلام..... 86
ب. المنطق الأرسطي وتأثيره في العلوم البلاغية.....90
1. قضية إعجاز القرآن الكريم.....94
2. وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.....96
3. القدر المعجز من القرآن الكريم.....98
4. إعجاز القرآن الكريم من حيث اللغة.....99
5. إعجاز القرآن الكريم من حيث النظريات العلمية 103
6. إعجاز القرآن الكريم من حيث منهجه الوجداني.....107
أ. أسلوب القرآن الكريم في التعبير والتصوير..... 115
ب. سمات القرآن الكريم في التعبير والتصوير.....116
خاتمة البحث 120
الهوامش.....128
المصادر والمراجع..... 134

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدين وبعد...

أ. الدوافع لاختيار الموضوع

من الطبيعي أن نذكر أولًا الدوافع لاختيار **"معجزة النبي الكبرى القرآن الكريم"** موضوعا للبحث والدراسة. من المعلوم أن البحث في هذا الموضوع كانت له أهمية بالغة في الدراسات السابقة في العهد القديم، وقد ازدادت أهميته في العصر الحديث بكثرة الكتابات على اختلافها في سيرة خير الخلق كله، وسيد الأولين والآخرين من العرب والعجم الذي بعثه الله سبحانه وتعالى بالهدى والفرقان ودين الحق، والذي ختمت به الرسالات العتيقة، والذي جاء بخير الأديان جدير بأن يكون أفضل إنسان. والكتابات التي تناولت هذا الموضوع وخاصة تلك التي ظهرت بأقلام الكتاب في الغرب هي كلها كانت مغرضة تعاكس الصورة الأصلية لصاحبها: النبي محمد ﷺ. فكان سيد الأنام وخير البرية، اصطفاه الله تعالى من خيرهم. فنحن نتناول هذا الموضوع مجددا لتلك الصورة الحقيقية الأصلية بهدف أن نهدم تلك الصور العكسية التي ظهرت في الآونة الأخيرة لتشويه رسالته ﷺ البيضاء الخالدة التي كُتِبَ لها الخلود والدوام، فهي تبقى وتخلد إلى ما بقي الإنسان في الأزمان التي ليس لها أي اسم ولم تعرف هويتها في التقويم العصري إلى الآن، لأنها هي صالحة لكل زمان ومكان. والتي نسخت بها جميع الشرائع والأحكام السابقة للأديان، فهي كانت رسالة الرحيل للعهد العتيق، صاحبها ﷺ نزل من حراء إلى قومه، وجاء بمعجزته الكبرى (القرآن الكريم)، فحول به التراب الحقير إلى ذهب مُصَفًّى، وفَرَّقَ

به بين الحق والباطل، وغَيَّر به شأن العرب الذين كانوا في جاهليتهم منذ قرون، ذلك النبي الصادق الأمين الذي كان يتفاخر به العرب خرج بأهل مكة ذات يوم، وصَعِدَ على جبل الصفاء وبَلَّغَ رسالةَ ربه، أكان صوته ﷺ صوت الرعد والبرق أو صوت الهادي الذي تزلزلت به جزيرة العرب كلها؟ إنه خَلَقَ أملا جديدا في كل قلب، وأيقظ الجميع من سباتهم بكلمة واحدة (لا إله إلا الله). وحين ارتفع صوت رسالة الحق تعالى في كل حدب وصوب، ودويت به الجبال والصحارى العربية كلها باسم الحق تعالى، درسهم ﷺ الشريعة الألمعية، وشرح لهم الحقائق الربانية، وقام بإصلاح ما كان في طبائعهم من عوج وفساد منذ أمد بعيد. ورفع الستار عن حقيقة السر الذي كان مخفيا أمام العالم كله حتى ذلك الحين.

ب. منهجية البحث

ولا ريب أن هذا الموضوع ذو صبغة تاريخية، فيجب أن نستخدم المنهج الوصفي التاريخي الذي يكون أصلح في معالجة مثل هذه الموضوعات التاريخية دائمًا، فنرجع إلى عهد النبي ﷺ، لنلقي نظرة على سيرته الشريفة. وكما هو معلوم أن العهد النبوي من حيث الزمان والمكان يشمل العهد المكي والمدني، فقلنا: حياة النبي ﷺ في مكة والمدينة. وحياة النبي ﷺ في مكة تميزت من حياته ﷺ في المدينة بمرحلتين نظراً إلى أهدافه وغاياته: مرحلة الدعوة إلى الإسلام محليا أو إقليميًا، ثم مرحلة الدعوة إلى الإسلام عالميًا. يعني حين خرجت الدعوة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية، واتصلت بشعوب أخرى صارت عالمية برسالتها، ونظراً إلى أن كل نبي بعث إلى قومه، ونبينا ﷺ بعث إلى الناس كافة. فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية برسالتها العالمية.

ج. أسئلة البحث

حسب ما قال: (برونتيير) إن العمل لا يخلو من نظرية (اللاحق بالسابق) يعني نريد أن ندرس حياة النبي ﷺ لمعرفة ما جاء به من رسالة ربه الله سبحانه وتعالى، مما كان عليه العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام. فكان لا بد أن نسأل:

1. ممن كان النبي ﷺ؟
2. أين عاش هؤلاء؟ ومتى عاش هؤلاء الذين نشأ فيهم النبي ﷺ؟
3. لماذا كان الصراع بين النبي ﷺ وبين مجتمعه الذي عاش فيه؟ هل كان الصراع من أجل العقيدة الدينية؟ وهل كان هذا النوع من الصراع الديني موجوداً في الجزيرة العربية قبل ذلك؟
4. ما هي الأحداث التي حدثت بعد هجرته ﷺ إلى يثرب؟
5. وما هي المعجزة التي تميز بها النبي ﷺ من سائر الأنبياء والمرسلين جميعا؟

وهذه التساؤلات كانت تتطلب أن ندرس عصر ما قبل الإسلام، أي العصر الجاهلي، لأن أي عمل لا يخلو من الجنس والبيئة والعصر، وكذلك لمعرفة بيئة هؤلاء الذين عاش معهم النبي ﷺ،كان يجب أن ندرس حياة العرب قبل الإسلام.

د. الدراسات السابقة

وأما من ناحية الدراسات السابقة فاعتمدنا على أمهات الكتب في السيرة النبوية في القديم والحديث، مثل سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن هشام وابن جرير الطبري، ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى والشيخان: البخاري ومسلم وبعض من أصحاب كتب السنن الستة في القديم. وسيرة النبي لسيد سليمان الندوي و"رحمة للعالمين" للقاضي محمد سليمان المنصوربوري و"رسول الرحمة" لمولانا أبو الكلام آزاد

بالأردية و"الرحيق المختوم" لسيف الرحمن المباركفوري و"حياة محمد" لمحمد حسين هيكل في العصر الحديث وغيرها. وقد ذكرنا هذه الكتب على سبيل المثال للدراسات السابقة وليس على سبيل الحصر، لأننا استفدنا من كتب علمية أخرى أيضًا، وهي كثيرة على اختلافها من حيث الكم والكيف في إعداد هذا البحث، مثلا: البعض منها في تاريخ الأدب العربي، والبعض الآخر في الأدب الإسلامي، أذكر منها تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف خاصة في دراسة العصر الجاهلي أو عصر ما قبل الإسلام.

فخرج البحث في خمس فصول على النحو الآتي:

هـ. خطة البحث

مقدمة البحث

الفصل الأول: "حياة العرب قبل الإسلام" تناولنا في هذا الفصل تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وأهاليها الساميين وقبائلهم العربية كما يلي:

أولًا: تناولنا تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم بالتعريف بشبه الجزيرة العربية من حيث جغرافيتها، وتاريخ سكانها الساميين. ثم تحدثنا عن جاهلية العصر الجاهلي يعني الحالة النفسية التي كان عليها العرب قبل الإسلام.

ثانيًا: تناولنا الوضع الاجتماعي والديني والقبلي في العصر الجاهلي، وتحدثنا عن أهاليها الجنوبيين والشماليين، وذكرناهم بقبائلهم، وأفراد قبائلهم وواجباتهم نحو قبائلهم ومجتمعهم القبلي، وقلنا إن المجتمع الجاهلي بوجه عام كان مجتمعا قبليا، وحَّدته الحالة الاجتماعية القبلية التي تتكون من الأسرة الكبيرة. وكان يرأس القبيلة شيخ مجرب يمتاز بحكمة وسداد الرأي وسعة الثرى، وهو الذي كان يقودها في الحروب، ويفصل بينها في المنازعات والمشاحنات، ويعقد المحالفات نيابة عنها،

وينهض بها، وكان له في مقابل ذلك حق الطاعة والتوقير، وكان المجتمع الجاهلي يتكون من ثلاث طبقات اجتماعية وهي: طبقة الأحرار وطبقة الموالي وطبقة العبيد. وكانت أسوأ هذه الطبقات كلها طبقة العبيد، وأسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام.

ثالثًا: تناولنا فيه ديانات العرب ومعبوداتهم، وبدأنا الحديث عن الديانة الوثنية لعرب الجاهلية، ثم تحدثنا عن عبادات جاهلية: مثل عبادة الحجارة والنار والأصنام سواء كانت محلية أو مجلوبة من الخارج.

والحق يقال إن الأصنام المنحوتة كانت مجلوبة من خارج الجزيرة العربية، لأن فنون النحت لم تكن شائعة عند البدوي في الجاهلية، فالعرب كانوا يعبدون هذه الأصنام بأساميها المختلفة، مثل: هبل الذي كان من أعظم أصنام قريش في جوف الكعبة، واللات، والعزى، ومناة، وود، وسواع، ويغوث ويعوق، ونسر وإساف ونائلة ومناف وغيرها من المعبودات. ثم تحدثنا عن عبادة الحيوان والأشجار عند العرب. وأما بالنسبة لتأثير الديانات الأخرى في حياتهم الروحية، فقلنا: لعل وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في الناس آثارا مختلفة سواء كانوا من النصارى أو الوثنيين، وكان من آثار ذلك ظهور جماعة المتحنفين، مثل: ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمر وغيرهم، فلا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى نجد استعدادا لقبول فكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة الحنفاء. ولكن لم يقدر لأي دين من الأديان سواء كانت اليهودية أو النصرانية أو الصابئة أو المجوسية الفوز والغلبة في بلاد العرب، بل إنهم (الحنفاء) دعوا إلى دين التوحيد من جديد، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية في الجاهلية كانت على وشك الانحلال، مما مَهَّدَ الطريق لبعثة النبي ﷺ.

وقمنا بإلقاء نظرة على ضلالات الأمم والشعوب في العالم قبيل بعثة النبي ﷺ، وهي خلفية تاريخية موجزة لحاجة الأمم إلى الإصلاح قبيل البعثة النبوية، فلم يكن فرق بين أمة وأمة، ولا بين ناحية وناحية، كانت رسالة النبي ﷺ عامة لجميع الأمم، موضحة نواحي الحياة كافة شاملة لجميع الفضائل التي بها سعادة الدارين.

وفي الدنيا كانت دولتان حضاريتان وقتئذ تتقاسمان العالم المتحضر، هما: فارس والروم، ثم اليونان والهند وراءهما.

أما فارس، فقد كانت لها فلسفات دينية متصارعة مختلفة، كانت فيها الديانة الزردشتية، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو بابنته أو أخته، كما تزوج (يزدجرد الثاني) بابنته، ثم ظهرت فيها (المزدكية) و(المانوية) التي قامت على حل النساء، وإباحة الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، وقد حظيت هذه الدعوة بالقبول من أصحاب الأهواء قبولا عظيما، فانتشرت انحرافات خلقية مشينة مختلفة في فارس.

وأما الرومان، فكانت لديها النوايا الاستعمارية، وكانت منهمكة في الخلافات الدينية بين الديانة المسيحية في روما من جهة، وديانة نصارى مصر والشام من جهة أخرى، فقامت اعتمادا على قوتها العسكرية وطموحاتها الاستعمارية بتطوير المسيحية والتلاعب بها حسب رغباتها وأهوائها. ولم تكن دولة الرومان أقل انحلالا من فارس فكان التبذل والانحطاط والظلم الاقتصادي واستعباد الناس أمرا متفشيا في جميع أنحاء الدولة. وكان سبب الانحلال والاضطراب والشقاء لتلك الأمم والشعوب كلها أن حضارتها ومدينتها كانت قائمة على أساس المادة وحدها، دون أن يقودها مثل أعلى إلى الطريق الصحيح.

الفصل الثاني: حياة النبي ﷺ في مكة والمدينة

وهذا الفصل يبدأ من الوضع الذي كان عليه المجتمع المكي عند بعثة النبي وينتهي إلى هجرة النبي ﷺ إلى يثرب تناولنا في هذا الباب العهد المكي لسيرة النبي ﷺ وبدأنا الحديث عن نسبه من صفوة القبائل العربية وأسرته ونشأته، ثم بعثته ودعوته إلى الإسلام سراً ثم جهرا، وقلنا إن المسلمين في العهد المكي كانوا أقلية في وجه الأغلبية لا يملكون قوة المقاومة اللازمة لمواجهة قريش ومنعهم من عمليات التعذيب.

ثم تناولنا حياة النبي ﷺ في يثرب بالبحث والدراسة، وقلنا إن حياته بدأت ببناء المسجد ثم آخى النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، لتكون رابطة الأخوة الإسلامية أقوى من قرابة الرحم والدم. فكتب النبي ﷺ وثيقة التعاون والتضامن بين أهالي يثرب من المسلمين وغيرهم من اليهود والمشركين.

الفصل الثالث: معجزة النبي ﷺ الكبرى القرآن الكريم ومنهجه الوجداني

تناولنا فيه قضية الإعجاز. إن وجوه الإعجاز كثيرة، وقد تناولها كثيرون من المتخصصين في علوم القرآن، فنذكر هنا بعضها: إن بعضهم ذهب إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة. وهذا يدل على عجز العرب، فلا يقال في من سلب القدرة على شيء، إن الشيء أعجزه مادام في مقدوره أن يأتي به في وقت ما، فلا يكون القرآن بذاته معجزا. وموضوع حديثنا هو إعجاز القرآن بذاته.

وقد ذكر العلماء أمثال القرطبي ما يزيد على عشرة أوجه من وجوه الإعجاز. والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتضمنه من الألفاظ والمعاني، فهو معجز من حيث تماسك الكلمة وتكوين الجمل وتماسك الآية، ومعجز في بيانه ونظمه، ومعجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيرا من حقائقها المجهولة،

ومعجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان، وتكوين مجتمع مثالي تسعد فيه الإنسانية في الدنيا كلها.

خاتمة البحث

وفي ختام حديثنا قلنا: نحن لا نؤيد هؤلاء الذين يقولون "إن العلوم البلاغية ليست مليئة بالخطأ والتقصير فحسب، بل هي أخذت وجهة خاطئة منذ بدايتها، فكان من المستحيل أن تنتج شيئا ذا قيمة في تذوق الأدب، لأن هذه العلوم قد دونها في الأغلب رجال من المتكلمين الأعاجم الذين ضعف نصيبهم من السليقة العربية، بتقليد أرسطو".

لأننا نرى أن هؤلاء يعتبرون تلك الجهود كلها ضائعة أو يقللون من أهميتها سواء بذلت من الأعاجم أو من العرب، مع أن العلوم العربية ازدهرت في العصر العباسي بعد أن تمخضت منها كتب قيمة لهؤلاء الذين حددوا أساسا لعقيدة الإسلام أو نظاما محددا له، ونجحوا في الدفاع ضد خصومهم دفاعا شديد الحيوية، لا نكاد نعرف له مثيلا قط في تاريخ الفرق الدينية.

وكذلك نحن لا نوافق على من يقول: "إن الكتب البلاغية أفسدت الأذواق العربية بدلا من تربيتها وتنميتها"، ونقول له يجب ألا نشك في نيئة النقاد البلاغيين الذين أضافوا إلى المكتبة العربية والإسلامية كتبا قيمة بجهودهم الضخمة، وهذه الكتب البلاغية مهمة جدا لتربية الذوق الأدبي، فبدلا من أن نعترف بعبقريتهم في هذا المجال، لا يجوز لنا أن نعتبر جهودهم كلها سلبية بمجرد استخدامهم المنطق الأرسطي. نعم.. استخدموه للرد على منطق أعداء الإسلام بلسان منطقهم العقلي، لأن ذلك العصر كان لا يفهم أي منهج سوى المنهج الأرسطي.

وكذلك نحن لا نؤيد هؤلاء الذين يقولون: "إن الجهود البلاغية مضللة، أو لم تنتج شيئا ذا قيمة، أو جهود ضائعة"، ونحن على يقين تام أن هؤلاء لا يشعرون بخطورة هذه الجمل الضارة الخطيرة للغاية، التي يمكن أن يبتعد بها الدارس المسلم عن كتب المتقدمين القيمة، التي لم تفقد أصالتها وفاعليتها حتى الآن، لأنها تتناول قضايا الإيمان بالغيب التي كانت ولا تزال قضية جوهرية قائمة بذاتها، ولم يتمكن المشركون بالله أو الملحدون الوجوديون – حتى الآن– من تقديم أي حل مقنع تجاهها سوى إنكار وجود واجب الوجود. ثم هذه الجمل خطيرة جدا، لأنها تهدم بناء الفكر الإسلامي الموروث، ولأنها تتعارض مع هدف المسلمين المنشود الذين يبذلون قصارى جهودهم لإحياء التراث العلمي والثقافي لأمجادهم من المفكرين العباقرة.

وكيف نقول إن تلك الجهود عقيمة أو كانت عقيمة وهي ترمي إلى هدف منشود، وهو إغناء العلوم والمعارف والآداب الإسلامية، بل هي التي تمخضت منها العلوم الإسلامية والعربية وازدهرت، حتى بدأت تعرف بها تلك العصور بعصور نهضاتها الزاهية.

فنحن نشكر لهؤلاء العلماء العباقرة ونعترف بفضلهم الذين انتصروا على خصومهم بمنطقهم العقلي ومنهجهم الجدلي، وساهموا في وضع حجر أساس للفلسفة الإسلامية، وحافظوا على عقيدة دينهم الإسلامي الحنيف بسلاحهم المنطقي، وكانت لهم مواقف وبصمات واضحة وجليلة في حماية كيان دينهم.

وبقي أن نشير إلى أن الهدف الأساسي من إعداد هذا الكتاب هو أن نقدم مرجعا علميا معتمدا يعتمد عليه المعلمون والطلبة من الجامعات الإسلامية والعربية في دراساتهم العربية والإسلامية، بدلا من أن يجدوا أنفسهم في حيرة بوجود بحر من الكتب التي دونت في هذا الموضوع.

فهذه دراسة متواضعة، نرجو أن تكون دراسة موضوعية شاملة تغطي جميع جوانب الموضوع، فبذلنا فيها قصارى جهدنا لنقدم البحث في أجمل وأشمل صورة من حيث الفكر والمنطق، فإن وفقنا فهذا بفضل من الله، ونرجو منه سبحانه وتعالى أن يقبل منا هذا الجهد المتواضع، وينفعنا وينفع الدارسين لهذا البحث. والله ولي التوفيق...

صلاح الدين محمد شمس الدين الأزهري
زمخشري بن حسب الله طيب
تيان رفيدة
تونانج حسن لوبس
ميدان – إندونيسيا
2025/7/12م

الفصل الأول
حياة العرب قبل الإسلام

أولا: تاريخ الجزيرة العربية القديم

لا شك أن دراسة ما قبل الإسلام مهم جداً، لأنها هي التي تمكننا من أن نرى الصورة الصحيحة لتلك الحالة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، والتي يسميها الإسلام بالجاهلية، فقبل أن ندرس ذلك العصر وتلك الحالة، يحسن بنا أن نلقي بعض الضوء على جغرافية شبة الجزيرة العربية.

الجزيرة العربية هي قطر فسيح، تبلغ مساحته حوالي مليون ميل مربع أو على الأكثر مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع، وهي تشمل منطقة الجنوب الغربي لقارة آسيا. وسميت بشبه الجزيرة، لأن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، من الجنوب والغرب والشرق، فيحدها الخليج العربي وبحر عمان في الشرق، والمحيط الهندي في الجنوب، والبحر الأحمر في الغرب، وتقع بادية الشام في الشمال. يبدأ حدها الشمالي بغزة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي، ويمر بالبحر الميت ويمتد إلى شرقي الأردن، ثم يمر بدمشق متجها نحو الفرات وينتهي عند الخليج العربي. ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بالقارة الإفريقية في الزمن المتعمق في القدم. ثم انفصلت عن شمالي إفريقية بظهور البحر الأحمر. وبذلك صارت محاطة بالمياه إلا من الشمال، ومن هنا جاءت تسميتها بشبه الجزيرة أو (شبه الجزيرة العربية) كما يسميها أهاليها العرب أنفسهم.(1)

وقسمها الجغرافيون القدماء من اليونان والرومان إلى ثلاثة أقسام:

1. بلاد العرب الحجرية
2. بلاد العرب الصحراوية
3. بلاد العرب السعيدة

1. بلاد العرب الحجرية

تتألف من جزيرة طور سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر، ويتوسطها طود من حجر الصوان يحيط به بقاع صخرية قليلة النبات. والجغرافيون العرب لا يعتبرون بلاد العرب الحجرية من أقسام الجزيرة العربية، على الرغم من أن الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية تجعلان بلاد العرب الحجرية قسما من أقسام الجزيرة.

2. بلاد العرب الصحراوية

بلاد العرب الصحراوية تتنوع إلى ثلاثة من حيث طبيعتها.

أ. النوع الأول:

هي تلك الصحراء التي يطلق عليها العرب (بادية السماوة) وتقع في الشمال بين الكوفة والشام، وهي أرض مستوية لا حجر بها، وليس بها إلا قليل من آبار وعيون. ويقع جنوبي بادية السماوة جَبَلَا أجا وسلمى، ويعرفان بجبل شمر، وهما من سلسلة جبال السراة الغربية، ويتجهان نحو الشرق ويمتدان إلى السهول الواقعة شمالي المدينة.

ب. النوع الثاني:

هي تلك الصحراء التي تقع في الجنوب التي تسمي (بالربع الخالي) هي متصلة ببادية السماوة في الشمال وتمتد شرقا حتى الخليج العربي. وهي صحراء رملية كبيرة يغلب عليها الجدب والقفر. وفي قليل من بقاع هذه البيداء أشجار ونخيل، ولا توجد بها الأودية ذات المياه إلا بعددها القليل مثل: وادي سرحان في الشمال، ووادي الرمة، ووادي الدواسر في الجنوب، وتسقط بها بعض الأمطار، فتمتلئ الأودية بالمياه.

ج. النوع الثالث:

تلك الصحراء التي أحدثتها البراكين، فهي"الحرار يعني أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار" كما ذكر ياقوت الحموي. وأراضي الحرار كثيرة في بلاد العرب ولا سيما حول المدينة، وعَدَّ منها ياقوت الحموي في كتابه: "معجم البلدان" نحوا من 19 حرة أشهرها: تبوك وحرة سليم، وحرة ليلى، وحرة أوطاس، وحرة غلاس، وحرة واقم.(2)

3. أما بلاد العرب السعيدة، فهي تشمل نجد والحجاز واليمن وعمان. وتقع نجد في جنوب بادية الشام، وتشتمل على وسط جزيرة العرب بين الحجاز والأحساء مع إقليم اليمامة أو العروض، حيث كانت مدينة هجر، ويفصل نجداً عن آكام عمان الجبلية صحراء الربع الخالي.

ويقع الحجاز في جنوب جزيرة سيناء، ويمتد على طول البحر الأحمر من أَيْلة (العقبة اليوم) إلى اليمن. وسمي حجازاً، لأنه يفصل بين تهامه ونجد أو بين تهامة والعروض أو بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد.

والحجاز على العموم قطر فقير، تكثر به الأودية التي تمتلئ بمياه الأمطار، ومناخه شديد الحرارة إلا أنه معتدل في بعض مدنه كالطائف. والحجاز له أهمية بالغة بوجود مدينتين كبيرتين هما مكة والمدينة، ونال عناية بالغة من الباحثين والدارسين والمؤرخين، لأنه مهد الإسلام الذي انتشر منه الدين الجديد.

وبلاد اليمن تقع جنوبي الحجاز، وهي غنية بأراضيها الخصبة منذ القدم، وتوجد فيها الزراعة التي تعتمد على المياه المتجمعة من الرياح الموسمية، وهي متوفرة بحسن تصريفها، وأشهر مدنها صنعاء وعدن ونجران، وفي شرقي اليمن تقع حضرموت على ساحل المحيط الهندي، وتكثر بها الجبال والوديان، وتقع ظفار شرقي حضرموت وتشتهر بالتوابل والطيب ولا سيما اللبان.

وفي نهاية الجنوب الشرقي من جزيرة العرب تقع عمان، وهي تشتمل على بلدان كثيرة ذات النخيل والزروع، وهي تشتهر بمهارة سكانها في الملاحة، فقامت الروابط التجارية بين الهند وجزيرة العرب الشرقية بصفة منتظمة منذ أمد بعيد.

ويرى بعض المؤرخين (أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين)، فقد نزلوا بها واستقروا فيها وعاشوا حياة مشتركة، وأن جزيرة العرب ولا سيما الأصقاع الوسطى منها لم تكن قاحلة جرداء كما نراها اليوم، بل كانت خصبة في العصور القديمة تصلح للعيش والحياة والسكنى ثم اعتراها الجفاف، فطمس معالمها وأزال حضارتها. وقيل إن نجداً هي المهد الأول الذي درج فيه الساميون، وإنها هي التي طبعتهم بطابع الصحراء الذي لا يمحى. ورأي ديغوية (De goeij) أن وسط جزيرة العرب هو المسكن الأول للجنس السامي على العموم.

فلشبه الجزيرة العربية أهمية بالغة بموقعها الجغرافي والطبيعي، وليس من الأمر الهين أن يحتلها أي محتل لبسط السيطرة والنفوذ، لأن رمال الصحارى الواسعة تحيط بها من كل ناحية، وهي تحول دون رغبات وسياسات المستعمرين المحتلين، فهي كانت كالقلعة المنيعة لأهاليها في الزمن القديم. فعلى الرغم من وجود إمبراطوريتين عظيمتين: الروم وفارس في جوارها كان أهاليها أحراراً في شؤونهم الاجتماعية عبر العصور.

4. جاهلية العصر الجاهلي

هو عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية، ويقصد به عادة (زمن الجهل وعدم المعرفة)، ويتبين لنا إذا ما أمعنا النظر في الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الجاهلية، أن المعنى المقصود بالجاهلية ليس هو الجهل الذي يقابل العلم أو هو ضده، ولكنه في معنى السفه والغضب والأنفة. وفي الواقع أن الجهل الذي هو ضد

العلم قد ورد كثيراً بهذا المعنى في شعر الشعراء القدامى أو الجاهليين والمحدثين على السواء، كما ورد في قول عنترة في معلقة: (إِنْ كُنْتِ جَاهِلَة بِمَا لَمْ تَعْلَمِي).(3)

فالجاهلية لا تؤخذ بمعنى الجهل الذي هو نقيض العلم أو السفه والغضب والأنفة، ولكنها كلمة تطلق ولا ريب على الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام أو الفترة الزمنية التي هي قبل الإسلام، ويؤيد ذلك بعض المؤرخين المحدثين، كما يقول فيليب حتى: "تفسر كلمة الجاهلية عادة بعصر الجهل أو الهمجية، ولكنها في الحقيقة تعني تلك الفترة التي كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أي قانون أو نبي موحى إليه أو كتاب منزل".(4)

ويقول شوقي ضيف: "إن كلمة الجاهلية مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم". ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب، ففي سورة البقرة: (قَالُوا أَتَتْخِذنَا هَزْواً قَالَ أَعُوذُ بِالله أن أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِيْن)، وفي سورة الفرقان: (وإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاما)، وفي سورة الأعراف: (وَاعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِيْن)، وفي الحديث النبوي أن الرسول قال لأبي ذر وقد عير رجلاً بأمه: "إنك امرؤ فيك جاهلية".

فاستخدمت الكلمة في هذه الآيات كلها في معنى السفه والطيش والحمق.
وقد أخذت الكلمة تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة، وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات.(5)

وإن لم يكن من الممكن تحديد فترة العصر الجاهلي بزمن محدد، إلا أن هناك آراء مختلفة للمؤرخين في هذا، فذهب بعضهم إلى أن العصر الذي خلا من

الرسل بين عيسى ومحمد (عليهما السلام)، ويرى البعض من المفسرين أن المراد بالجاهلية في الآية: (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) إنها الزمن الذي قبل مولد إبراهيم، ومن المعروف أنه أبو العرب. وقال ابن عباس: هي فترة ما بين نوح وإدريس. وذهب كثير من الناس إلى أنها الزمن الذي كان قبل البعثة النبوية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) (كما يتضمن قول الجاحظ). ويرى (نيكولسون) أن الجاهلية تشمل في الحقيقة كل فترة منذ آدم إلى محمد.(6)

ولكنها قد تستعمل في دائرة محدودة للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام. وبذلك لم يكن من السهل تحديد العصر الجاهلي بزمن معين، لأنه ليس زمناً متصلاً بعضه ببعض، بل هو فترات متقطعة تقع حينا بعد حين، وكل فترة منها تكون طائفة وثنية لها شعائرها، وخصائص عباداتها التي تعبر عن شعور الأمة حسب دواعي البيئة.(7)

ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يذهبون إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية، وهي الحقبة التي اكتملت فيها للغة العربية خصائصها الأدبية، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي. كما يلاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال: "أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام".(8)

وهي ملاحظة دقيقة، لأن ما هو قبل هذا التاريخ من الشعر العربي مجهول.(9)

6. العرب الساميون وقبائلهم العربية

وقد كان لفظ (عرب) في التاريخ القديم يرادف لفظ (بدو) أو (بادية) قال تعالى: على لسان يوسف (عليه السلام): (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو)،(10)

أي جاء بكم من البادية، وكان أهل البادية يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام أو ببادية الشام. وقد ذكرهم الله بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر، واجتمع شمل الأسرة بمصر. والأعراب في (القاموس المحيط) من مادة (عرب) هم سكان البادية خاصة، ولا مفرد له.

وقد ورد لفظ الأعراب في القرآن الكريم تسع مرات للدلالة على سكان البادية.

ولكن لما تحضر العرب واستقروا في المدن والأمصار، استعملوا لفظ (الحضر) لأهل المدن و(البدو) لأهل البادية. وكان السبئيون إلى التاريخ الميلادي إذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا: (القبيلة الفلانية وأعرابها).(11) فهناك فرق كبير بين معنى العرب والأعراب.

وعرف العرب كذلك بلفظ (taits) الذي أطلقه السريانيون من أهل الرها وسكان بابل على جميع العرب، والظاهر أن المقصود بهذا اللفظ هو قبيلة طيء لشهرتها في الجاهلية، والتي كانت تقيم أصلاً في شمال نجد ثم انتشرت في جهات أخرى.(12)

وعلى الرغم من تلك الإشارات التي وردت عن العرب الجنوبيين في العهد العتيق، ظل تاريخهم غير واضح حتى الآن، إلا أن الباحثين استطاعوا أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها، واستقر

بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هي: مملكة معين ومملكة سبأ ومملكة قتبان والمملكة الأوسانية ومملكة حضرموت.

7. العرب الشماليون وعصبياتهم القبلية

العرب الشماليون هم العدنانيون الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد، وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية وبدوية تعتمد في أكثر الأحيان على رعي الإبل والأغنام، ولم تهيئ لهم هذه الحياة الاستقرار في سكنى دائمة، إلا حيث توجد بعض الواحات في الحجاز. فكانوا يحملون بيوتهم (خيمهم) على أكتافهم، وينتقلون من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والكلأ.

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تجمع شملهم، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام، ولم يهتدوا في أثناء ذلك بهدى إلا بطلوع شمس الإسلام الذي يعتبر أرضهم مهده الأول. والذي جمع كلمتهم وألف بينهم، وجعل منهم دولة واحدة.(13)

هناك فرق بين عرب الشمال –بما فيهم عرب نجد– وبين عرب الجنوب من الناحية الجنسية، فالشماليون ينسبون لجنس البحر الأبيض المتوسط، والجنوبيون ينسبون للجنس الألبي المسمي أيضاً بالجنس الحيثي أو العبري.

وكان العداء مستحكما بين العدنانيين (الشماليين) والقحطانيين (الجنوبيين) منذ القدم، حتى أن كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً في الحرب يخالف شعار الآخر. ولم يزل الاختلاف واضحاً بينهم على الرغم من محاولة الإسلام توحيد الأمة العربية وجمع شملها تحت لوائه، وقد كان لهذا الاختلاف أثر كبير في إضعاف معنويات الدولة العربية.(14)

8. طبقات العرب في الجاهلية

ثم قسم المؤرخون العرب الجنوبيين والشماليين جميعاً إلى ثلاث طبقات: بائدة، عاربة، ومستعربة.

أ. طبقة العرب البائدة

هي طبقة تلك القبائل العربية القديمة التي هلكت واندرست آثارها وانقطعت أخبارها فلم يجد المؤرخون عنها معلومات كافية إلا ما ذكر عنها في القرآن الكريم، وهي عندهم تسع قبائل آرامية من ولد آرام بن نوح (عليه الاسلام)، منها عاد سكنت ببلاد أحقاف، ولكن لا يمكن تحديد ما إذا كان قوم عاد من الجنس السامي من سلالة الإرميين، أم أنهم كانوا يمثلون ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد؟ وكان قوم عاد أشد الناس بطشا شيدوا أبنية شاهقة تدل على حضارتهم ومدنيتهم، وكانوا يعبدون الأصنام. وعلى مر الزمن ظهر شعب آخر بعد هلاكتهم يدعى بقوم عاد الثانية. وكان مقرهم اليمن، وينسب بناء سد مأرب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي حكى عنه المؤرخون العرب حكايات خرافية كثيرة. وثمود عاشت ببلاد الحجر ووادي القرى، فكانو يسكنون بيوتا منحوتة في الجبال، ولا تزال آثارهم باقية في مدائن صالح على مسيرة أسبوع من شمال المدينة ومنها طسم وجديس سكنت بالبحرين واليمامة، وعبيل بالجحضة بين مكة والمدينة، وعبد ضخم بالطائف، ووبار وجرهم فيما بين ذلك. أما عمليق أو العمالقة، فيقولون إنهم من نسل لاوذ بن سام أخي إرم.(15)

ويقال إن قوم عاد ومعظم العمالقة القدماء من نسل حام.(16)

وقد ورد في القرآن ذكر كبريائهم وجبروتهم اللذين أديا بهم إلى التهلكة. ولم يذكر أصلهم في التوراة، وقد حاول بعض مفسريها تطبيق أسماء هذه القبائل البائدة على بعض الأسماء الواردة بالتوراة بتكلف ملحوظ.

والعمالقة يقصد بهم أهل شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء الذين فتحوا مصر باسم (الهكسوس) وملكوا بابل أولاً ثم نزحوا منها إلى جزيرة العرب، وقيل إن لفظ (العمالقة منحوت من اسم قبيلة مواطنها بجهات العقبة أو شماليها حيث كان العماليق).(17)

ب. طبقة العرب العاربة:

وهم بنو يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أفخشذ بن سام بن نوح، ويقال إن قحطان (جد أعراب الجنوب) ابنه يعرب الذي يعتبر أول من اتخذ العربية لسانا، ولقبه الشعراء (رب الفصاحة).

ومن هنا أطلق على القحطانيين العرب العاربة،(18) الذين نزحوا من وادي الفرات إلى بلاد اليمن، ومن أشهر قبائلهم حمير وكهلان، ومن حمير قضاعة التي تفرقت بطونها في جزيرة العرب إلى مشارف الشام والعراق، ومن قضاعة جزيمة الأبرش كان ملكه تَدْمُر في القرن الثاني الميلادي، وقد ملك جزيمة الحيرة والأنبار، وهو أصل دولة المناذرة اللخميين بالحيرة. ومن كهلان الأزد بنو غسان ملوك العرب والشام والأوس والخزرج بالمدينة، ومنها أيضاً كندة رهط امرئ القيس الشاعر الجاهلي.

ج. طبقة العرب المستعربة

كانت منازل العرب المستعربة في تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق، ويسمون بالإسماعيليين نسبة إلى جد هم إسماعيل (عليه السلام)، وبالعدنانيين نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل (عليه السلام). وكانوا بدواً أهل رحلة يقيمون حيث الماء والكلأ. وأمهات قبائلهم أربع: ربيعة ومضر وأياد وأنمار، وهم الذين تألف منهم جمهرة القبائل العدنانية، وأكثرهم عدداً مضر ثم ربيعة وهم أولاد نزار بن معد بن

عدنان، وبين عدنان وإسماعيل (عليه السلام) زمن طويل خال من أي أثر من تاريخ سلالات آدمية.(19)

ويقال لهم العرب المستعربة، لأن إسماعيل (عليه السلام) كان يتكلم العبرانية. فلما نزلت جُرْهُمْ من القحطانية بمكة، وسكنوا مع إسماعيل وتزوج منهم، تعلم هو وأبناؤه العربية، فسموا المستعربة.(20)

وقد رزق الله إسماعيل من زوجه يعني من (ابنة مضاض) اثنى عشر ولدا (من الذكور) وهم: نابت أو نبايوط، وقيدار، وأدبائيل، ومبشام، ومشماع، ودوما، وميشا، وحدد، ويتما، ويطور، ونفيس، وقيدمان، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشر قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة وخارجها، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار. وقد ازدهرت حضارة الأنباط –أبناء نابت– في شمال الحجاز، وكونوا حكومة قوية دان لها مَنْ بأطرافها، واتخذوا البطراء عاصمة لهم. وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك وكان منه عدنان وولده معد، ومنه حفظت العدنانية أنسابها.

ويؤكد شوقي ضيف أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب، وهي التي تؤلف علماً واسعاً عند العرب وهو علم الأنساب، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز بها، وبأنها تعود إلى أصل واحد، فهي من دم واحد ولحم واحد، حتى عبروا هذه القرابة باللحمة كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ.

8. النظام القبلي في الجاهلية

1. التكامل والتحالف بين القبائل

وهذه القبائل كانت تتحد في نظمها القبلية، التي تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد، وهو موطن متنقل مع المراعى، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعرف تتمسك بها شديداً، والصلة الوثيقة التي كانت تربط بين أفراد

القبيلة هي العصبية القبلية، والشعر الجاهلي مملوء بالعصبية القبلية، ولكن قلما نجد فيه بأن يفخر العربي على غيره من الأمم.(21)

ولم يكن عند القبائل العربية شعور واضح بالجنس العربي أو الأمة العربية، وإن كان فيها شعور ضئيل بالوحدة، لا بين القبائل الشمالية فحسب، بل بينها وبين القبائل الجنوبية، فلم تتجمع القبائل العربية تحت لواء واحد، وإنما كل ما كان عندهم هو اتحاد قبلي له رئيس، ومن الاتحادات التي كانت تجمعها هي اتحادات الأحلاف. ويظن أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل، إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها، وفي حالة دخول القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق، وكانت تنفصل بعض القبائل من حلف إلى حلف آخر يحقق مصالحها. وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف، ولذلك سميت باسم جمرات العرب. والقبائل المتحالفة كانت تهاب لخشونة مسها. وأصل الحلف والتحالف من كلمة الحلف بمعنى اليمين أو القسم الذي كانوا يقسمون في عهودهم، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو في دم وكانو يقولون: الدم الدم والهدم والهدم ... وربما أوقدوا النار عند تحالفهم. ومن الأحلاف المشهورة في مكة حلف المطيبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تيم وبنو أسد ضد بني عبد الدار وأحلافهم، فغمسوا أيديهم في جفنة مملؤة طيبا. وأكرم منها حِلْف الفضول، وفيه تحالفت قبائل من قريش على رفع التظلم من كل مظلوم في مكة، ومناصرته ومؤازرته – سنذكره بشيء من التفصيل– ومنها حلف الرباب، وهم خمس قبائل: ضبة وثور وعكل وتيم وعدي. ومنها حلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تيم وأسد. وحلف الحمس بين قريش وكنانة وخزاعة.

2. الندوة أو البرلمان القبلي

وكان لهذه القبائل المتحالفة وغير المتحالفة مجلس (مجلس الشيوخ) يضم شيوخ عشائرها، وهو ندوتهم، التي كانوا ينظرون فيها شؤون المجتمع القبيلي، والجلسة كانت فيها مفتوحة لكل من يستطيع أن يحضرها ويتحدث فيها، ولم يكن لانعقادها موعد محدد. وكانوا يجتمعون عادة مساء، وكلما حزبت الأمور وإذا دعت الحاجة إلى انعقادها. فيناقشون ويتحاورون، وفي أثناء ذلك يدلي سادتهم بحكمهم وتجاربهم في الحياة. وكانت القرارات والتوصيات لهذه المجالس نافذة، فجميع أفراد القبائل تذعن لها ولا تشذ عليها.

3. القبائل والسيادة فيها

عادة كان سيد القبيلة شيخاً كبيراً مجرباً، له حنكة وحكمة وسداد في الرأي وسعة في الثروة، هو الذي كان يقود القبيلة في الحرب والضرب، ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل الأخرى، ويعقد الصلح والمحالفات، ويقيم الضيافات، ولا يفهم من ذلك أنه كانت له سيادة واسعة، فسيادته كانت رمزية، فالسيد في القبيلة إنما هو الشخص الألمعى الذي حنكته التجارب وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه، حتى يتم له الحسب الرفيع. ليس له أي حقوق سوى توقيره. أما واجباته فهي كانت كثيرة، فلا بد فيه من الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ الجوار، وإعانة المعوز والضعيف، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفع من ديات. ولا بد أن يكون حليماً متسامحاً.(22) وكان من أهم ما يقوم به السيد إصلاح ذات البين في القبيلة، مستعينا في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها، ودائما لا بد له من استشارتهم، بل لا بد له من أن يسمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة، فهم جميعاً أكفاء يساووه في الحقوق. ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة، وهي

حق التواطن في القبيلة، فإذا أجار أحد شخصاً أصبحت قبيلة ملزمة به في الحقوق، وعليه ما عليهم من واجبات.

4. أفراد القبائل وواجباتهم نحو مجتمعهم القبلي

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر، فكل فرد فيها يضحي لها بنفسه وبماله، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحريته يعيش لها وداخل إطارها، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم، وكانوا يقدسونها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية، التي تشركهم فيها قبائل أخرى، أما شعائر العصبية القبلية فإنها كانت خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد. وربما كان يتسامح الواحد منهم في دينه، إذ لم يكن الدين يهمه في كثير من الأحوال، أما في العصبية فإنه كان لا يمكن أن يسامح في أي واجب من واجباتها. وكانت القبيلة من جانبها تعطى لأبنائها عليها نفس الحقوق، فهي تنصرهم في المهمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين، والمثل معروف عندهم: (انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً) وبسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم قد تحولوا إلى ما يشبه كتائب حربية، فكل قبيلة مستعدة دائما للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر، ولذلك يرى كليمان هوارت: (أن العرب كلهم – حضراً أو بدواً –كانوا يولدون رجال حرب،(23) وهي دائما شاكية السلاح حتى تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى، فكانوا دائما يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوهم في حروبهم. وكانوا يعتدون بسيوفهم اليمانية والهندية وبرماحهم وقسيهم ودروعهم وتروسهم وبيضاتهم وخوذاتهم، وكذلك بخيولهم، حتى بلغت إشادتهم بالخيل إشادة بالغة، وسموها أسماء كثيرة.(24)

وكان المجتمع الجاهلي يتكون من ثلاث طبقات اجتماعية، هي:

1. **طبقة الأحرار**، وهم أبناء القبيلة الذين ينتمون إلى أب واحد، ويجرى في عروقهم الدم العربي الخالص الذي لا تشوبه شائبة.
2. **طبقة الموالي**، وهم العتقاء من العبيد أو الأحرار الخلعاء الذين خلعتهم القبيلة. ولجأوا إلى قبيلة أخرى ليعيشوا في كنفها وحمايتها.
3. **طبقة العبيد**، وهم الأسرى الذين يقعون في يد القبيلة عند حروبها أو الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية، وخاصة من الحبشة. وكانت أسوأ هذه الطبقات جميعاً طبقة العبيد، وقد كانت أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام باعتباره أحسن نظام للعدل الاجتماعي في دنيا الإنسان.

ثانياً: ديانات العرب ومعبوداتهم قبل الإسلام

هذه الحقيقة لا تجحد أنه ليست هناك جماعة إنسانية في الدنيا ظهرت دون تفكير بالغريزة في الدين لمعرفة مصير الإنسان المجهول، وتقلب ظواهر الكون، فبدون شك كان للعرب دين كأديان غيرهم من الأمم.

1. الديانة الوثنية لعرب الجاهلية

فكان الإنسان البدوي ينظر مثل غيره من أصحاب الديانات البِدائية إلى ما حوله من الأشياء المادية كالأشجار والأحجار والرمال أو من مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والكوارث الطبيعية، والنجوم والشمس والقمر، فكانت إحساساته هذه تدفعه إلى الإيمان بوجود قوة غيبية أو روحية في هذه الأشياء المادية من العالم المادي المرئي المحسوس بألوانه وأشكاله المختلفة. فكان يعتقد البدوي أن لكل من هذه الأشياء روحاً تحركها، وبالتدرج أصبحت القوي الطبيعية العليا آلهة، أما القوي السفلى فأحيلت إلى مراتب الجن والشياطين، وهكذا اكتملت صورة الألوهية في عقلية الإنسان الجاهلي. إلا أن هذه المحسوسات الطبيعية كالأشجار والآبار

والكهوف والحجارة بقيت مقدسة عند البدوي، فكان يجعلها وسائط ليتقرب منها إلى معبوده، فكان يعبد الأحجار والأشجار والآبار وبعض الحيوانات.

واختلف المؤرخون في عبادة الأصنام عند العرب من حيث كونها محلية أو مجلوبة من الخارج، ففي رأي البعض لم يكن الوثن في تصور العرب رَبًّا إلى القرن السادس قبل الميلاد، لأنهم لم يتأثروا بالوثنية المجاورة: البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك. والأساطير التي نسجت حول النصب تدل صراحة على أن العربي لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الكائنات، لأنه تارة يستقيم عند الوثن، وتارة أخرى يسبه ويشتمه، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة. فبناء على ذلك لم تكن الوثنية الخارجية، حتى القرن السادس قبل الميلاد قد دخلت بلاد العرب أو تأثر بها العرب أنفسهم، ومعنى ذلك أنه لم تكن هناك سوى الوثنية المحلية التي انحصرت في تقديس الأشياء التي استفاد بها العربي البدوي، والتي استمرت، ثم تطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة.(25)

فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج، لأن العرب لم ينحتوا الأصنام، لأن فنون النحت لم تكن شائعة عند البدوي في الجاهلية، ويؤكد ذلك قول ابن هشام (بأن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق... رآهم يعبدون الأصنام، فسألهم ما هذا؟ قالوا: نستسقى بها المطر ونستنصر بها على عدو، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوا طلبه)، فقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته، وإلى مفارقة الحنيفية، فأجابه الجمهور.. حتى تم له ما أراد.(26)

ولا شك أن العرب تأثروا بوثنية الأمم المجاورة، فالثابت أن المردوخ والزهرة عُبِدَا في جزيرة العرب وأنها من الأصنام البابلية. وكذلك تأثر العرب بكلديا وآشور، فقد كانت عادة تقديم الليالي على الأيام قد جرت عند الجاهلين، كما قال البيروني

في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية": "إن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقطة المغارب على دائرة الأفق، فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد"، وهذا يخالف نظرية الروم والفرس، ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس. كذلك قيل إن كلمة"صنم" أصلها صُلْم (Solm) وهي كلمة آرامية دخلت البادية العربية.(27)

والبيوت التي كانوا يتخذونها لعبادة أصنامهم كانت منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الخلصة وهي الكعبة اليمانية وكعبة الطائف، وهي كعبة اللات. وأشهر كعبتهم هي كعبة مكة، حارسة الوثنية في الجاهلية، وهي التي كانوا يطوفون بها أسبوعاً، ويسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يقفون بعرفة، ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم إلى منى. وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس، أما في مزدلفة، فعند شروقها، ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط، وكانوا يختلفون في طوافهم، فمنهم من كان عريانا وهم الحلة، ومنهم من كان يطوف في ثيابه وهم الحمس من قريش وكنانة وخزاعة. وقد أبطل الإسلام العرى في الطواف كما أبطل كثيراً من تقاليد الحمس، وكان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى، وتقديم العتائر أو الضحايا، وذبحها عند الأنصاب، وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات.(28)

وما ورد في القرآن الكريم يدل على ذلك: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون}. (سورة الأنعام – الآية: 136)

وذكر القرآن الكريم أيضاً بعض العادات والتقاليد السائدة في الجاهلية الوثنية، مثل البحيرة والسائبة والحام، وأولاها الناقة أو الشاة يحرمون لَبَنَهَا والانتقاع

بها، والثانية ما يسيب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع ماء ولا كلأ. والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن، فإذا كان السابع ذكرا ذبح، وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى استحيوه، وإن ولدت توأما: ذكراً وأنثى، قالوا وصلت أخاها، وحرموا ذبحه على أنفسهم. أما الحام، فهو البعير الذي ينتج عشرة أبطن من صلبه، ويقولون: قد حمى ظهره، فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

وكذلك كانت عندهم مناسك وشعائر وطقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم، وقد هدمها الإسلام هدماً تاما. ومن أهم تلك المناسك والشعائر التلبية، فكان نسك قريش لإساف، تقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه ما ملك، وكانت تلبية من نسك للعزى: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك، وكانت تلبية من نسك لود: لبيك اللهم لبيك، لبيك معذرة إليك. وكانت تلبية من نسك لذي الخلصة: لبيك اللهم لبيك، لبيك ما أحب إليك.(29)

وكانت عندهم أربعة أشهر محرمة، وهي ذو القعدة وذوالحجة ومحرم الحرام ورجب المرجب، وكان الحج إلى مكة في شهر ذي الحجة، وفي اسم هذا الشهر ما يدل على أن الحج المعظم للكعبة كان فيه، ولم يكن القتال والدم مباحاً في هذه الأشهر المحرمة، ولم يحدث انتهاك لحرمات هذا البيت (الكعبة) قط، إلا في حرب الفجار. فهذه الأشهر الحرم كانت هدنة لهم، وفرصة متاحة للتجارة وإقامة الأسواق.

2. نظرة على ضلالات شعوب العالم قبيل الإسلام

ولنلقي نظرة على ضلالات الأمم والشعوب في العالم قبيل الإسلام نقتبس أولاً صفحة من صفحات التاريخ القديم، ونقول: "قبيل البعثة المحمدية كانت دول العالم تعاني من الحروب الخارجية والفتن الداخلية في دماء سائلة، وقوى متخاذلة، وترف وسرف بلغا بالملوك والأمراء والقادة والرؤساء للديانات غاية من الإفراط ألجأتهم إلى إثقال كاهل الرعايا بالضرائب الباهظة، وخلى بين الأقوياء والضعفاء، فجَرُّوهُمْ

أموالَهُمْ وثمرات أعمالهم، فعم الفقر والذل، واضطرب حبل الأمن، وخيمت على العقول سحائب الخمول، وأسدلت عليها حجب الأوهام والأباطيل، إذ حرم الرؤساء على الناس النظر في أمر الدين، وأوجبوا عليهم الاقتصار فيه على التلقي بلا تبيين، في الوقت الذي كان له من ينابيع الوثنية معين أي معين، فثارت الشبهات على العقائد، وامتنع تمييز الصالح من الفاسد، فاختلط الدنس بالطهارة، واشتبه الصلاح بالدعارة، والتبس الشره بالقناعة، وقد يلتمس رضا الله بما تنفر منه شرائعه وتأباه، ورزئ بعض الشعوب بمذاهب فوضوية زاد بها خطبها واشتد كربها.

والعرب حينئذ كانوا في حيرة ضالون، وفي فتنة خابطون، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، فهم بين سفك الدماء، وسبي نساء ووأد ولائد، وفساد عقائد، وأصنام منصوبة، وأموال مغصوبة.

هذا أداهم إلى معاملات بفاحش الرباء قلت منها الخيرات، ومنعت الصدقات، وهضمت حقوق الفقراء، وأكلت أموال الناس بالباطل وفشا الظلم، واختفت المجاملة، ونضب معين الشفقة والرحمة، وأغفلت حقوق الجوار، وفصمت روابط الإخاء. وبالإجمال كانت الروابط الاجتماعية عند جميع الأمم في انحلال، والأخلاق في فساد واعتلال، من فتن انقطع فيها حبل الدين، وتزعزت أركان اليقين، واشتدت الأهوال، وساءت الأحوال، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عصى الرحمن، ونصر الشيطان، وخذل الإيمان في كل مكان، فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون). (سورة الروم:41)

فالناس جميعاً حيارى في زلزال، يتطلعون إلى من ينتشلهم من وهدة الضلال، ويبرئهم مما عم نواحي حياتهم من اختلال وإعلال.

وحالة الناس طراً تستدعى صيحة قوية تنبه الغافلين، وتزعج الظالمين، وتهبط بذوي الزعامة إلى صفوف العامة، ولا تفضل إلا المتقين.

وتتطلب روحاً قويا يحيأ به أموات الذل والهوان، ويتخلص أسرى الازدراء والاستهزاء، ويرد به الأقوياء عن السطو على الضعفاء.

وتحتاج إلى نور ساطع يكشف عن العقول ظلام الخرافات والأوهام، لتتبين الخير من الشر، والنافع من الضار، ويزيل عنها غياهب الجمود، فتفكر فيما بين يديها من الوجود، لتهتدى إلى معرفة الخالق المعبود.

وتستلزم نهجا قويماً يسلكه من حيرتهم الشبهات، ويلزمه من أضلتهم الشهوات، وأسرهم قبيح العادات، ليصل بهم إلى كل فضيلة، ويبعدهم عن كل رذيلة.

فلما كان حاجة الأمم قبيل البعثة إلى الإصلاح حافزة، لا فرق بين أمة وأمة، ولا بين ناحية وناحية، كانت رسالة نبينا ﷺ عامة لجميع الأمم، موضحة نواحي الحياة كافة، شاملة لجميع الفضائل التي بها سعادة الدارين.

فبعد أن درسنا الوضع التاريخي والموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية، وأهاليها العرب، وحياتهم القبلية، وعاداتهم وتقاليدهم وخصائص طبائعهم وديانتهم في العصر الجاهلي، كان من اللازم أن نلقي نظرة على أوضاع الأمم والشعوب لبلاد العالم المختلفة التي عاشت في جوارهم قبيل الإسلام، ليتجلى شأن الحكمة الإلهية التي اقتضت أن تكون بعثة رحمة للعالمين ﷺ في تلك البقعة دون غيرها من بقاع العالم، لنتصور في مقابل ذلك ما كانت عليه الأمم الأخرى أنذاك: كالفرس والروم واليونان والهند بعاداتهم وطبائعهم وخصائصهم الحضارية. وفي ضوء ما اقتسبناه نشرح وضع دنيانا التي كانت فيها دولتان حضاريتان تتقاسمان العالم المتحضر وقتئذ، هما: فارس والروم ثم اليونان والهند وراءهما.

أما فارس فقد كانت فيها فلسفات دينية متصارعة مختلفة، كانت فيها الديانة الزرداشتية التي كانت قد بدأت بعقيدة التوحيد، التي اعتنقها الأكاسرة، من ملوك الفرس، إلا أنها كانت قد تحولت إلى ثنوية الشرك، فكانوا يعبدون إلهين: النور والظلمة أو الخير والشر أو "أهورا مزادا" و"أهرمان" وذلك قبل حملات الإسكندر الأكبر، ثم جمع شملها (أردشير بابكان) مؤسس الدولة الساسانية، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بابنته، ثم ظهرت فيها (المزدكية) التي قامت على حل النساء وإباحة الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، وقد حظيت هذه الدعوة بالقبول من أصحاب الأهواء قبولاً عظيماً، فانتشرت الخرافات خلقية مشينة مختلفة في فارس.(30)

وأما الرومان فكانت لديها النوايا الاستعمارية، وكانت منهمكة في الخلافات الدينية بين الديانة المسيحية في روما من جهة وديانة نصارى مصر والشام من جهة أخرى، فقامت اعتماداً على قوتها العسكرية وطموحاتها الاستعمارية بتطوير المسيحية والتلاعب بها حسب رغباتها وأهوائها. ولم تكن دولة الرومان أقل انحلالاً من فارس، فكان التبذل والانحطاط والظلم الاقتصادي واستعباد الناس أمراً متفشيا في جميع أنحاء الدولة، وذلك إثر جراء كثرة الإتاوات ومضاعفة الضرائب.

أما اليونان فقد كانت غارقة في هوسات من خرافاتها وأساطيرها الكلامية دون أن تصل منها ثمرة أو نتيجة مفيدة لإنسانية الإنسان.

أما الهند فقد قال عنها سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: إنه قد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس عشر الميلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الأخلاقي والاجتماعي.(31)

وكان سبب الانحلال والاضطراب والشقاء لتلك الأمم والشعوب كلها هو أن حضاراتها ومدنياتها كانت قائمة على أساس المادة وحدها، دون أن يقودها مثل أعلى إلى الطريق الصحيح، لأنها كانت خالية من التنزيل الإلهي أو الروح الدينية، فالنتيجة كانت أنها نزلت بماديتها إلى الدرك الأسفل للشقاء والاضطراب.

أما الجزيرة العربية فقد كانت بعيدة شبه منعزلة عن مظاهر هذه الاضطرابات كلها، فكانت هادئة، فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون في خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والانحطاط الخلقي ووضعها في قوالب دينية. كما لم تكن لديهم قوة الطغيان العسكري الروماني يبسطون بها رقعة سلطتهم على أراضي من حولهم، ولم يكن لهم نصيب من ترف الفلسفة والجدل اليوناني، فلم يقعوا فرائس للأساطير والتوهمات العقلية. فكانت طبائعهم صافية كالمرآة، تترأي فيها فطرة الإنسان السليمة وإنسانية الإنسان الحميدة، كالوفاء والنجدة والصدق والصراحة والكرم والإباء والعفة واجتناب الضيم، إلا أنه كانت تعوزهم المعرفة التي ترسم لهم طريق الهداية إلى الصراط المستقيم. إذ أنهم كانوا يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية (البدوية) الأولى، فضلوا الطريق إلى القيم الإنسانية، فكانوا يقتلون بناتهم إما بدافع الشرف والعفة أو العار الاجتماعي بسبب الجهل، فكانوا يتلفون الأموال الضرورية للحياة بدافع الكرم ولضيافة الضيوف، وكانوا يثيرون فيما بينهم المعارك بدافع الإباء والنجدة.

وهذه الحالة هي التي عبر الله عز وجل عنها بالضلال حين وصفهم قوله: "وإن كنتم من قبله لمن الظالمين". (32)

والأمم الأخرى كانت تستهدى لانحرافاتها الاجتماعية بمعالم حضارتها وثقافتها ومدنيتها المادية الخادعة المضللة فانقلبت رأسا على عقب وانزلقت

وسقطت في هوة الضلالة والهلاك، لبعدها عن تبصر وهداية رشيدة مرشدة وفكر سليم، ولحرمانها من نور التنزيل السماوي.

وإذا أراد كل من الباحثين أن يمعن نظره في خريطة العالم القديم رأي أن هذه الجزيرة العربية كانت ولا تزال تقع في نقطة الوسط المركزية بين حضارتين: حضارة الغرب المادية وحضارة الشرق الروحية الخرافية لحضارة الهند والصين وما حولهما.

الفصل الثاني

حياة النبي ﷺ في مكة والمدينة

1. نسب النبي ﷺ:

ينقسم نسب النبي ﷺ إلى ثلاثة أجزاء. (33)

فلا يختلف النسابون في الجزء الأول من نسب النبي ﷺ إلى معد بن عدنان.

الجزء الأول:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم (عمرو) بن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (وهو قريش) بن مالك بن النضر (قيس) بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (عامر) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (ابن أدد أو أد).

الجزء الثاني:

ثم يختلفون في الجزء الثاني منه وهو ما فوق عدنان وهو ابن أد بن هميسع بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوى بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزى بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام).

والجزء الثالث:

هو ما فوق إبراهيم (عليه السلام)، وهو ابن تارح (آزر) بن ناحور بن ساروع (ساروغ) بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أفخشد بن سام بن نوح (عليه السلام) بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ (قيل إنه إدريس (عليه السلام)) ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوشة بن شيث بن آدم (عليه السلام). (34)

2. أسرة النبي ﷺ

إن النبي ﷺ ينتمي إلى أسرة بني هاشم بن عبد مناف بن قصي القوية في مكة فكان النبي ﷺ مثل غيره من الأنبياء ذا حسب في قومه. قد اشتهر معظم أجداده في الجاهلية السادة والتجارة الرابحة، فقصي هو الذي يرجع إليه الفضل في استيطان قريش مكة.

بعد أن قادها في حرب ناجحة ضد خزاعة، وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وعبد المطلب هو الذي شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، فأعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست، وكان يسقى منها الحجاج الوافدين على مكة وها هي بعض التفاصيل عن أسرته:

أ. **هاشم:**

هو الذي تولى السقابة والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار بعد إنهاء الخلاف بينهما في توزيع الوظائف:

1. الحجابة هي سدانة الكعبة، 2. السقاية، 3. الرفادة، 4. الندوة، 5. اللواء، 6. والقيادة.

وكان هاشم موسرا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الشريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو، وسمي هاشما لهشمه الخبز لقومه بعد أن حدث جدب شديد في مكة، فخرج هاشم إلى الشام، واشترى خبزاً، ويأتي به إلى مكة. (35)

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم، فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التي بمكة، فيشرب الحجاج. ولما توفي هاشم خلفه أخوه المطلب في إقامة الرفادة والسقاية، وكان ذا شرف وفضل في قومه، وكانت قريش تسميه (الفياض) لسماحته وفضله. (36)

إن هاشماً تزوج سلمى بنت عمرو من بني عدي بن النجار، وذلك بعد وصوله من رحلته التجارية للشام إلى المدينة، ثم خرج إلى الشام تاجراً، قد حملت بعبد المطلب وهي عند أهلها، فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، ووضعت زوجته سلمى ابنها عبد المطلب سنة 497م، وسمته (شيبة) لأنه ولد وفي رأسه شيبة. (37) أو سمي تفاؤلا بأن يبلغ سن الشيب، ولقب (بشيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له، ولأنه كان مفزع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور، فكان شريف قريش وسيدها كمالا وفعالا غير مدافع.(38)

ب. عبد المطلب:

فتربى شيبة بن هاشم المشهور بعبد المطلب في بيت أبي سلمى أمه في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة، ولما صار عبد المطلب وصيفا أو فوق ذلك سمع به المطلب أخو هاشم، فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله إلى مكة، فامتنعت، فقال:

إنما يمضي إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله، فأذنت له، فقدم به مكة مرادفا على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم... فأقام عنده، حتى مات المطلب بردمان من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، فنال شرفا لم يبلغه أحد من آبائه. (39)

ومن أهم ما وقع في حياة عبد المطلب هو ما يتعلق بأمر بيت الله وحمايته يعني حفر بئر زمزم، ووقعة الفيل. فتذكر رواية ابن هشام أنه أمر في المنام بحفر زمزم، ووصف له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة، حين لجأوا إلى الجلاء وهي كانت عبارة عن السيوف والدروع والغزالين من الذهب، فضرب الأسياف بالكعبة، وضرب في الباب الغزالين، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

وأما بالنسبة للحدث الثاني فهو يتعلق بحماية الكعبة المشرفة من أبرهة الأشرم. كان قد شرم حاحب أبرهة وأنفه وشفته، ولذلك عرف أبرهة (بالأشرم) الذي جرد جيشاً عظيماً من الأحباش لهدم الكعبة المشرفة، ولما اقترب من مكة عسكر في مكان يقال له المغمس. ثم بعث أبرهة إلى مكة رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود، فلما وصل إليها، ساق إليه أموال أهل تهامة من أهل قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله، غير أنهم رأوا أنفسهم غير قادرين على القتال، فعدلوا عنه. ثم بعث أبرهة حناطة الحميري إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأخبره بأن أبرهة لم يأت إلا لهدم البيت، وليس لحرب أهل مكة. فقال له عبد المطلب: (والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإنه يمنعه منه، فهو بيته، وحرمه، حتى يأتي العسكر، فلما رأه أبرهة أجله وأكرمه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك، ففعل الترجمان، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه (قل له كنت قد أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال عبد المطلب: (إني أنا رب الإبل وإن للبيت رب سيمنعه).(40) ولكنه لم يفلح في رده عن غزو مكة، فخرج حانقاً إلى الكعبة، ومعه جماعة من قريش.

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها –على رواية ابن اسحاق–

خذل أبرهة وهزم جيشه، إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول (كما ذكرت القصة في القرآن الكريم).

وقيل أن وباء الجدري قد انتشر في جيش أبرهة، وفتك برجاله فتكا ذريعاً، حتى أن بعضهم يقول إنه لم ينج من هذا الجيش سوى أبرهة نفسه، ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن، وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل.(41)

وأبرهة فبعث الله عليه داء فهلك. وفي رواية مات أبرهة بعد أن عاد إلى اليمن بقليل. فلم يصل إلى صنعاء.. فانصدع صدره عن قلبه ثم هلك. (42)

ويعرف عام هذا الحادث عند العرب بعام الفيل، وذلك نظراً إلى العدد الكبير من الفيلة التي استخدمها أبرهة في غزوته الفاشلة للكعبة المشرفة. يذكر علي إبراهيم حسن أن (كوسان دي برسقال) Caussin de percvag يرى أن حادث الفيل وقع في عشرين أغسطس سنة 570م ويرى (فري مان) Free man في كتابه Saracena Lectures أن سنة 569م هي عام الفيل، بينما يرى (بالمار) Palmar أن حادث الفيل وقع في 20 أبريل سنة571. فالروايات التي تدل على تاريخ وقعة الفيل هي مختلفة بسبب الخلاف في حساب التقويم. (43)

فزاد ذلك في تقديس العرب لها، وإعظامها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم، إذ لم تدن لأي ملك أجنبي. (44)

وذكر صاحب الرحيق المختوم أن هذه الوقعة كانت في شهر محرم الحرام قبل مولد النبي بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً – عند الأكثر– وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة 571م. ولكنه لم يذكر المرجع التي اعتمد عليه، لعله اعتمد على استنتاج صاحب كتاب (رحمة العالمين).

ج. عبد الله:

وعبد الله كان والد الرسول الله ﷺ، وكانت أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، لأن والده عبد المطلب أخذه إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش، ولاسيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فأخبرهم بنذره، وهو إذا بلغ عدد أولاده عشرة يذبح واحداً منهم بالقدح فكتب أسماءهم في القداح، فخرج القدح على عبد الله، فقال كيف أصنع بنذري، فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الأبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل، حتى يرضي ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فزادوا على هذا العدد كل مرة، ولكن القرعة لم تقع إلا عليه إلى أن بلغ عدد الإبل مائة، فوقعت القرعة عليها، فنحرت عنه.. فكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة على مائة من الإبل، وأقرها الإسلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (أنا ابن الذبيحين) يعني إسماعيل وأباه عبد الله. (45)

3. ميلاد النبي ونشأته ﷺ:

واختار عبد المطلب لابنه –عبد الله– وكان في الرابعة والعشرين من عمره فتاة من أسرة عريقة في الجاهلية، هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وكان وهب سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، وبعد أن أقام عبد الله مع زوجه في ديار أهلها ثلاثة أيام، انتقل بها إلى منازل بني عبد المطلب، وأقام معها أياماً قليلة، ثم خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملاً، ولكنه لم يعد من تلك الرحلة، حيث مات في يثرب ودفن. وقيل أرسله عبد المطلب إلى المدينة فمات بها ودفن، وكان عمره عند الوفاة خمس وعشرون سنة. وتقدمت بآمنة أشهر الحمل، حتى كان مولده ﷺ في صبيحة يوم

الاثنين الموافق 20 أو 22 من شهر إبريل سنة 571م، وهي السنة التي يطلق عليها (عام الفيل). (46)

وعهدت أمه إلى حليمة السعدية بإرضاعه، فرحلت به إلى البادية حيث كانت تقيم مع بني سعد، وبعد أن بقي عندها خمس سنوات ردته إلى أمه، وبذلك نشأ الرسول ﷺ في بيئة بدوية، وكان لذلك أثره في تعلمه لغة أهل البدو الفصيحة. (47)

وكانت أخوته ﷺ في الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي معروفة بلقب الشيماء) وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ﷺ. وكان عمه حمزة أيضاً رضيع رسول الله ﷺ من جهتين: من أمه ومن حليمة السعدية.

وهكذا تربي النبي ﷺ في بني سعد، وحين بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره وقع حادث شق صدره، وروى مسلم ذلك الحادث في صحيحه عن أنس (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره – فقالوا إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون). (48)

فكان رسول الله ﷺ من قبيله قريش التي ترأسها قصي، ومن أبوين فقيرين في مالهما، غنيين في جاههما وحسبهما. وقد مات والده قبل أن يولد، فكفلته أمه. ولما بلغ السادسة من عمره خرجت به أمه لتزور أخواله في يثرب، فمكثت هناك شهراً، ثم عزمت على العودة إلى مكة، وبينما هي في أوائل الطريق توفيت بالأبواء بين مكة ويثرب. (49)

وبعد وفاة أمه ﷺ كفله جده عبد المطلب، حتى توفي، ثم كفله عمه أبو طالب وهو في التاسعة من عمره، وصار منذ ذلك الوقت يحنو عليه ويعني به، ويخرجه معه في أسفاره، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس، ما جعله يزداد به تعلقا. وهذا ما يعبر عنه قوله تعالى: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ. (سورة الضحى: 6-8). (50)

ونوجز القول: إنه ﷺ عاش يتيماً، فقد والده وهو في بطن أمه، وفقد أمه بعد قليل، وبقي في رعاية جده عبد المطلب، ثم في رعاية عمه أبي طالب، وكلاهما أغدق عليه من عطفه وحنانه، وبعد أن شب طفلاً اشتغل راعيا للأغنام عند عشيرة بني سعد. (51)

-مثلما فعل معظم الأنبياء قبله- قد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة، وشهد معه إحدى وقائع العرب البدو المشهورة بحرب (الفجار. (52)

وقد سميت بهذا الاسم لقيامها في الأشهر المحرمة، التي اتفق العرب على تحريم القتال فيها وما بعدها. وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم الحرام، ورجب.

4. رحلة النبي ﷺ إلى الشام:

وعندما بلغ الخامسة والعشرون من عمره وجد نفسه متفرغاً للخروج إلى الشام تاجراً، ولكنه لم يجد من يقف جنبه ويساعده بالمال، وكانت خديجة بنت خويلد إمرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوما تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها عن صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج تاجراً في مال لها إلى الشام مع غلام لها اسمه ميسرة، على أنها ستعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره، فقبل النبي ﷺ هذا العرض منها بعد أن شاور فيه عمه أبا طالب، وخرج في مالها، كما خرج معه غلامه ميسرة إلى الشام، فجنى ربحا كثيرا. (53)

5. نكاح النبي ﷺ وخديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)

حين رجع بهذا الربح الكثير إلى مكة، ومما لا شك فيه أن المصالح الاقتصادية هي التي جمعته بالسيدة خديجة (رضي الله عنها)، التي وجدت فيه الشخص الأمين على مالها وبضاعتها، مما جعلها تعجب بهذا الشاب الأمين، وزاد إعجابها به ما قص عليها ميسرة من أخباره قصها حببتها فيه، فرأته شاباً يافعاً يختلف عن غيره من الشبان، فهو إلى جانب طيب سمعته، وقوة شخصيته، كان يمتاز بجمال الخلقة وجمال النفس، ووقار الكبار، حتى تمنت أن تتزوجه. ولكن كيف السبيل إليه، وهو الذي لم يفكر في التزوج منها، يمنعه فارق كبير في السن، فقد كان في الخامسة والعشرين، وهي في الأربعين، وفارق أكبر في الوضع الاجتماعي، فقد كان وضيعا يتيما، وهي ابنة خويلد من كبار أشراف مكة وأغنيائهم. وكان الكثير منهم يتمنى بالتزوج منها، إلا أنها لم تقبل أحداً منهم. فحين وجدت ضالتها المنشودة وجدت نفسها في حيرة: تمنعها التقاليد والحياء من مكاشفة محمد بالأمر، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت صفية، كى تعرف ما بداخل نفسه، فسألته عما يمنعه من الزواج، فاعتذر بقلة ماله، فقالت: فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ألا تجيب؟ فسألها: من؟ فقالت: خديجة، فقبل محمد وتم الزواج. ودفع صداقه عمه أبو طالب، وخطب خطبة أوضح فيها فضائل النبي ﷺ ونبله رغم قلة ماله.. ثم قال: إن محمد بن عبد الله ابن أخي، من لا يوازن به فتى من قريش، إلا رجح عليه براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليَّ. (54) وسافر إلى الشام عدة مرات بعد الزواج.

وقد أتاح هذا الزواج للنبي ﷺ مركزاً ممتازاً في حياته المكية، فعاش عيشة هادئة كأي حضري يعيش في مدن الحجاز. وعاش معها، فلم ينكح عليها امرأة غيرها حتى توفيت (55) فولدت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) للنبي ﷺ

من أولاده الذكور: القاسم والطاهر والطيب، ومات كل واحد من بنيه في صغرهم إلا البنات، وهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأدركتهن الوفاة في حياة النبي ﷺ، سوى فاطمة (رضي الله عنها) التي لحقت به بعد ستة أشهر من وفاته. وكذلك كان للنبي ابن اسمه إبراهيم، أنجبه من زوجته المصرية مارية القبطية. (56)

6. تجديد بناء الكعبة المشرفة:

قبل خمس سنوات من البعثة صدعت جدران الكعبة المشرفة بسيل عرم وأوشكت منه أن تنهار الكعبة، فاضطرت قريش إلى بنائها من جديد نظراً إلى قدسية مكانتها، واتفقوا على أن لا يصرف في بنائها إلا من المال الطيب الحلال، وكانوا يخافون من إجراء عملية الهدم، ولكن الوليد بن المغيرة لم يخف، وبدأ يهدم جدرانها، فرأي الآخرون منهم أنه سليم، لم يصبه شيء يضره، شاركوه في هدمها، حتى وصلوا إلى تلك القواعد التي كان قد بناها إبراهيم (عليه السلام)، ثم أرادوا تجديد البناء على الأساس الإبراهيمى وخصصوا جزءا منها لكل قبيلة، فجمعت كل قبيلة أحجارها على حدة، وتولى عملية البناء بناء رومي اسمه (باقوم). ولما بلغ البناء موضع الحجر الأسود، بدأ الخلاف بين القبائل فيمن يتشرف بوضع الحجر في محله، ودام الخلاف بينها أربع أو خمس ليال.

واشتد النزاع حتى كاد أن يتحول إلى معركة دامية في ساحة بيت الله الحرام، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي الذي كان كبير السن في قريش عرض عليهم بأن يحكموا أول من يدخل عليهم من باب المسجد، لإنهاء الخلاف فيما بينهم، فقبلوه وشاء القدر أن يكون ذلك الشخص هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا بالأمين، رضينا به، هذا محمد، ولما سمع النبي ﷺ كلامهم أدرك خطورة الموقف، ثم فرش الرداء على الأرض، ووضع الحجر وسط الرداء، ثم طلب من رؤساء جميع القبائل

المتنازعة أن يمسكوا جميعاً بأطرافه، حتى وصلوا به إلى موضعه، فأخذه النبي بيده ثم وضعه بنفسه في محله فكان ذلك حلاً مقنعاً ومرضياً للجميع.

ويدل هذا التحكيم النبوي الصائب على اعتقاد قريش بأمانة محمد الصادق الأمين. وكان النبي في الخامس والثلاثين من عمره وقتئذ، (57) وكان يمتاز في قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضلهم مروءة وأحسنهم خلقا، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثاً، وألينهم عريكة، وأعفهم نفساً، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وآمنهم أمانة حتى سماه قومه (الأمين) وهكذا كانت حياة النبي ﷺ مثالاً للأمانة والإخلاص والخلق الكريم، ووصفه ربه بأنه على خلق عظيم.

7. النبي ﷺ في حراء

إن النبي ﷺ كان في المرحلة الأولى من حياته يتنزه –مثل غيره من الأنبياء– عن المذمومات، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما كان يذبح على النصب، ولا يحضر في عبادة الأصنام مع غيره من أفراد المجتمع الوثني، بل كان منذ نشأته الأولى نافرا من المعبودات الباطلة، وشب والله يحفظه ويعصمه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامة الرسالة، كما حبب إليه الخلوة والصمت والتأمل والتفكر واستكناه الحق، فكان يطالع بعقله الخصب، وفطرته السليمة صحائف الطبيعة وشئون حياة الناس، وأوضاع المجتمعات الرديئة، فكان ينأي نفسه من الأوهام والخرافات، وكان يعايش الناس على البصيرة من أمره وأمرهم، وكان يشاركهم في كل خير إلا عاد إلى عزلته العتيدة، وكان يصبر على سماع الحلف باللات والعزى، فكان يقضي شهراً كل سنة يتحنث أي يبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة في غار من جبل (حراء) على مقربة من مكة. والتحنث هو نوع من العبادة التي كان يتعبد بها جده إبراهيم (عليه السلام) قبل النبوة، ولعل المقصود بكلمة (التحنث) هو البحث عن دين إبراهيم

أو (الحنيفية) فكان لا يرجع من (حراء) إلى مكة قبل انتهاء السويق والماء، وفي بعض الأحيان كانت زوجته خديجة بنت خويلد أيضاً تصاحبه في الذهاب إلى (حراء) إلا أنها كانت تعود إلى مكة بعد قضاء بعض الوقت.

8. بعثة النبي ﷺ وبدء الوحي:

فكان النبي ﷺ يتردد على غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ففي يوم الاثنين 21 رمضان. (58) وكان قد بلغ الأربعين من عمره، كلف مثل غيره من الأنبياء بالقيام برسالة دينية إلى أمته عن طريق الوحي.

إذ رأي جبريل الذي ظهر أمامه، وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فضمه، حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له اقرأ، فقال ما أنا بقارئ، فضمه مرة ثانية وثالثة وقال له: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم). (59)

فرجع النبي ﷺ يرجف فؤاده إلى منزله، وقال لزوجه: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، ما حدث لقد خشيت على نفسي فقالت له: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو شيخ كبير أعمى كان قد تنصر في الجاهلية، ودرس النصرانية، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره الرسول ﷺ عما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا، ليتني (أكون) حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله: أ ومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، فاطمأن الرسول ﷺ، ثم لم

ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي. (60) وهذه الفترة لم تكن لمدة ثلاث سنين أو سنتين ونصف السنة –كما هو مشهور–.

9. دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام:

وبعد فترة عاد محمد إلى الغار، فنزل عليه جبريل مبشراً بأنه رسول الله حقاً، فرجع الرسول ﷺ إلى داره وقال لزوجه: دثروني، فنزلت عليه الآية: (يا أيها المدثر قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر.) (61) ثم حمى الوحي وتتابع (62) بعد نزول أوائل المدثر، وكانت الآيات والسور في البداية قصيرة ذات فواصل وإيقاعات هادئة تناسب مع صمت الجو الهادئ، وتتناول موضوعات الإيمان بالله وتطهير النفس، ومناظر الدنيا الدنيئة وصور الجنة الجميلة المحبوبة والنار المروعة ومشاهد من حياة الدنيا والآخرة.

فالوحي الثاني (يا أيها المدثر) كان بدء رسالة النبي بالدعوة وتوحيد الله وتكبيره، وتبعاً بعد الإيمان بنبوة سيدنا محمد ورسالته ﷺ.

وهذه الدعوة، قامت على أسس ذكرت في الآية، وهي:

1. إنذار العصاة والمكذبين بالعواقب السيئة
2. إعلاء كلمة الله وتكبير بجلال كبريائه تعالى
3. تطهير النفس ظاهراً وباطنا من المعتقدات الباطلة والأعمال السيئة والأخلاق الفاسدة
4. والتعليم أو التبليغ الديني يجب أن يكون مجاناً، من غير مكابرة المجهود وإظهار المنة أو الفضل على الآخرين.

فالوحي الأول بدأ بسورة (اقرأ بسم ربك الذي خلق...) يعني هذا الوحي بداية نبوة النبي ﷺ، والخطاب فيها للنبي بأن يقرأ ويتعلم، فعلمه وأدبه الله سبحانه

وتعالى، ليؤدي رسالته سبحانه إلى الناس كافة، والوحي الثاني هو ما ذكر في (أيها المدثر) يتعلق بالرسالة، وهذه الرسالة كانت تتلخص فيما يلى:

أ. التوحيد

ب. الإيمان بالبعث والنشور.

ج. الأعمال الصالحة والسيئة.

د. الاعتماد على الله اعتمادا كليا.

هـ. والإيمان بهذه الرسالة.

وهذه الدعوة كانت سرية، والذين عرض عليهم النبي ﷺ كانوا من آل بيته وأصدقائه وأقرب الناس إليه، والذين قبلوا هذا الدين، وآمنوا بنبوة محمد ورسالته ﷺ، قبل غيرهم من الناس هم معروفون بالسابقين الأولين في التاريخ الإسلامي.

وخلاصة القول: إن النبي ﷺ لبث في هذه الدعوة السرية ثلاث سنين، أسلم خلالها نحو الأربعين. فعلى الرغم من أن الدعوة كانت بطيئة، وأعداد هؤلاء المسلمين الأوائل كانت قليلة، إلا أن البطء كان في رؤية وحزم، والقلة كانت في قوة وعزم، فلم يكن ذلك الوقت وقت الكثرة، لأنها لا تخلوا من عوامل الضعف، وجراثيم الرجعية التي تؤثر في الجماعات الناشئة، فمن الحكمة أن يعني الزعيم باصطفاء أعوانه، ويهتم القائد باختيار أركان حربه، فلا يشرع كلاهما في الجهر بما يريد، حتى يروض أصحابه على احتمال المشاق، والتغلب على العوائق.

ولا شك أن تكتم النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام خلال هذه السنوات الثلاث الأولى لم يكن بسبب الخوف على نفسه، لأنه ﷺ كان يوقن بأن الله الذي بعثه نذيراً وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس، يقول الله تعالى: (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين). (63) على أن الله

عزوجل لو أمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علنا، لما توانى عن ذلك قط، حتى ولو كان تتراءى له في سبيل ذلك المتاعب والأخطار التي واجهها ﷺ قبل هجرته إلى يثرب. ولكن الله عز وجل ألهمه –وإلهام الرسول نوع من الوحي إليه– أن يبدأ الدعوة في مرحلتها الأولى بسرية وتكتم، لأنها كانت تقتضي الكتمان في تلك الظروف، فكان لا يلقي بها إلا من كان يثق بأنه يؤمن بها.

والخلاصة أن الرسول ﷺ استمر في دعوته إلى الإسلام سرا، فدعا كل من كان يعرفهم ويعرفونه بالأمانة والصدق، وهم كانوا على علم اليقين بعظمة رسول الله ﷺ ورسالته، فالدعوة كانت عامة، ولكنها كانت سرية إلى من يطمأن إليه، وظلت على تلك الحال حتى نزل قوله عز وجل: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين). (64)

10. نظرة على العهد المكي لحياة النبي ﷺ:

قبل أن ندرس العهد المدني لحياة النبي ﷺ ينبغي لنا أن نلقي نظرة على العهد المكي ليتجلى لنا الفرق بينهما من حيث تغير الظروف بتغير البيئة للدعوة إلى الإسلام.

1. كان المسلمون في العهد المكي أقلية في وجه الأغلبية الوثنية، لا يملكون قوة المقاومة اللازمة، لمنع قريش من عمليات التعذيب أو مجابهة قريش بقوة مسلحة، لأن قريش بحكم الأغلبية كانت تفوقهم من حيث القوة ومن جميع النواحي: يعني من ناحية قوة السلاح وكثرة الرجال من جهة، وكان من ورائها الحلفاء العرب المشركون جميعاً، فاستخدام القوة ضدهم لم يكن في صالحهم وقتئذ، حتى ولو فكروا في استخدامها لما استطاعوا، كما قال الله تعالى: (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم

الناس فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون). (سورة الأنفال:26)

2. إن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام، الذين كانوا الرعيل الأول من المسلمين في العهد المكي، كانوا من مقدمة الجيش الإسلامي، ومن طلائع هؤلاء الذين حملوا لواء الإسلام في أيديهم، فكان من الضروري أن يعبروا مرحلة الإيذاء والمحن والفتن، ويواجهوا عمليات الجبر والقهر والتعذيب بالصبر والصمود، حتى يقدروا على الوقوف، والمضى قدما لما أختاره الله لهم، مهما كانت الظروف قاسية، وثقلت أكتافهم من تحمل أعباء المعانات الجسدية والمعنوية. فكان العهد المكي فترة شاقة، وهي فترة تربية الذات البشرية، حتى تتعود على تحمل المشقات، وآلام المرحلة المقبلة من المسئوليات، وتخضع في هذه التربية لما جاء به الرسول الله ﷺ من أمر ربه، وذلك لبناء مجتمع إسلامي جديد ثم تأسيس دولة الإسلام في يثرب.

3. كلما يظهر فكر جديد أو دين جديد (غير مألوف) تكون له معارضة عنيفة جدا، فحين ظهرت الدعوة إلى الإسلام جهرا، كانت لها معارضة عنيفة جداً من قريش وحلفائها من القبائل العربية، إلا أن الصبر والصمود هو سلاح بتار لمواجهة تلك المعارضة، فاستخدم المسلمون هذا النوع من السلاح للدفاع عن دينهم الجديد، فانهزمت به معارضة قريش في العهد المكي. وسياسة اللاعنف هي التي دفعت الناس إلى قبول هذا الدين الجديد بما فيه من جاذبية للقلوب المستنيرة من الهداية الربانية والتنزيل الإلهي، والطبائع السليمة، ففشا ذكر هذا الدين عن طريق الدعوة إليه سرا، ثم جهرا، فصبر المسلمين وثباتهم كان تحديا صارخا لقريش في أيام عمليات الإيذاء والتعذيب التي اتخذت ضدهم، فهؤلاء المسلمون كانوا نماذج رائعة

للصبر والثبات، والإيمان الراسخ بما جاء به النبي ﷺ من ربه، فتركوا كل شيء: البيت والأهل والمال والوطن وهاجروا إلى أراضي الحبشة، وتلك الهجرة إلى الحبشة كانت رسالة للصبر والثبات لأعداء الإسلام من مشركي قريش، قالوا فيها: نحن مستعدون لمواجهة أي نوع من التحديات، ولكننا لن نترك رسالة رسولنا ﷺ أبداً، بل نعيش بها ونموت من أجلها، ولن نرتد إلى دين آبائنا وأجدادنا الوثني أبدًا.

4. إن رسول الله ﷺ سلك منهجا فريدا للإقناع في الدعوة إلى الإسلام، وهذا المنهج يتكون من ثلاث عناصر للإقناع، كما قال الله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن). (سورة النمل:125)

5. إن الحمية الجاهلية مذمومة في شريعة الإسلام، إلا أنها كانت وسيلة لحماية حياة النبي ﷺ، فأبو طالب عَمُّ النبي ﷺ قام بحماية ابن أخيه محمد ﷺ وبنو هاشم وبنو المطلب وقفوا جميعا ضد المقاطعة العامة من قبل قريش، وذلك على الرغم من أنهم لم يكونوا جميعاً من المسلمين، وإنما كان بينهم مسلمون ومشركون، إلا أنهم عاشوا جميعاً في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنوات أو سنتين على الأقل، وعانوا ما عانوا من معاناة الجوع والعطش، ولكن لم يتخل أحد منهم عن حماية رسول الله ﷺ، وكان السبب هي الحمية الجاهلية التي تقول: انصر أخاك ظالما أو مظلوماً.

6. أثبت النبي ﷺ أن دعاوى سادات قريش: بأنه ﷺ مجنون أو ساحر أو كاهن وما إلى ذلك كلها كانت باطلة، وأثبت أن الإسلام لا يفرق بين أفراد الأسرة، وإنما يقدم نظاما صالحا لكل أسرة، وجاء الإسلام ليؤلف قلوب القبائل المتناحرة، وبهذا الاعتبار يعتبر الإسلام دين تأليف القلوب

وألفة النفوس. وجاء لإصلاح العقائد الباطلة، والأوهام والخرافات المضللة، والعبادات المنحرفة عن جادة الصواب. وجاء لتحرير بني الإنسان من سلاسل العادات والتقاليد القديمة البالية والسيرة الجاهلية الفاسدة، إن الإسلام ما جاء لهدم المجتمعات البشرية، وإنما جاء ليبني مجتمعا صالحا لكل بشر في كل مكان، لترتاح إنسانية الإنسان تحت ظله المريح، ونبي هذا الدين ﷺ جاء ليتمم مكارم الأخلاق.

7. إن النبي ﷺ بعث رحمة للعالمين، وما جاء ليقتل، ويتظاهر بعضلاته القوية عند المقدرة، فلم يستخدم النبي ﷺ قوة قط ضد هؤلاء الذين كانوا منشغلين بإيذائه وأصحابه طوال فترة العهد المكي، حتى بعد الفتح المبين أعلن العفو العام عنهم جميعا بكلمة معروفة (لا تثريب) وهذه الكلمة جديرة بأن تكتب بالذهب، كأنها رسالة للأجيال القادمة، ثم إنه كان قد بعث هاديا، فالذين كانوا يعذبون المسلمين الأوائل لم يدعو عليهم، وإنما قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فمشيءة الرحمن تحركت نحوهم، فمن الذي كان يعلم أنهم هم الذين سيكونون من جنود الإسلام وحملة رسالته الأمناء المخلصين، بل من قادته: مثل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

11. هجرة النبي ﷺ من مكة إلى يثرب

فتوجه النبي ﷺ إلى أبي بكر في حر الظهيرة –وما كان يأتيه في مثل هذا الوقت– فلما وصل بيته استأذنه، فأذن له فدخل، فقال لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، فقال: فأني قد أذن لي الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله. قال نعم: فبكى أبو بكر من شدة الفرح، ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين قد كنت أعددتهما لهذا، فخذ أحدهما،

فقال رسول الله ﷺ بالثمن، قال: فهي لك يا رسول الله، قال: إني لا أركب بعيرا ليس لي، فما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال كذا وكذا قال ﷺ: قد أخذتها به ثم استأجرا عبد الله بن أريقط رجلا من بني الدئل بن بكر-كان مشركا- يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادها.

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع أولئك النفر من قريش على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأي رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي (رضي الله عنه): نم على فراشي، وتسبح ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان الرسول ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.(65)

ولما اجتمع فتيان قريش له محاصرين بيته، وفيهم أبوجهل، فقال مثيرا ثائرهم: إن محمدا يقول أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.(66)

ثم خرج النبي ﷺ وهم جلوس على الباب فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم...

ويبدو من دراسة تقابلية للروايات الواردة في هذا الصدد، أن خروجه ﷺ -كان في ليلة سبع وعشرين من صفر سنة أربع عشرة من البعثة النبوية- الموافق- ليلة- ثلاث عشرة من سبتمبر سنة اثنتى وعشرين وستمائة من الميلادية، ومكث ثلاث ليال في غار ثور ثم خرج منه يوم الاثنين لهلال ربيع الأول. وجدير بالذكر أن في حسابات تقديرية لتحديد تاريخ خروجه ﷺ من مكة هناك اضطراب.(67) ولكن ما جاء به سليمان المنصورفورى من تحديده هو أقرب إلى الصواب.(68)

والذي منعهم من عملية اقتحام البيت، هو وجود علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في برد رسول ﷺ حيث أنهم ظنوا أنه هو رسول الله ﷺ على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤسهم، وهو يتلو هذه الآيات: يس والقرآن الحكيم- حتى بلغ إلى قوله تعالى-فأغشيناهم فهم لا يبصرون" ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ها هنا؟ قالوا: محمدا، قال: خيبكم الله، قد مر بكم والله، وذر على رؤسكم التراب فما ترون بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليا على الفراش ببرد الرسول ﷺ، فيقولون والله إن هذا لمحمد نائما، عليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي (رضي الله عنه) فقالوا لقد كان صدقنا الذي حدثنا، وسألوا عليا عنه، فقال لا علم لي به.

ثم توجه رسول الله ﷺ إلى منزل أبي بكر (رضي الله عنه) فخرج هو وأبو بكر من بيته، ثم عمدا إلى غار ثور فدخلا، ولا يعلم عن خروجهما سوى آل أبي بكر وعلي (رضي الله عنه) إذ كان الرسول ﷺ خلفه-كما سبق- لأداء الودائع التي كانت عنده للناس وكان الرسول ﷺ ليس بمكة أحد عنده بشيء يخشي عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.(69)

وبعد أن خرج النبي ﷺ من بيت أبي بكر (رضي الله عنه) وقف على مرتفع هناك، ثم أشرف على أم القرى وقال: إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت، ثم بدأ يناجي ربه وهو يريد أن يهاجر إلى يثرب. وكان أمر أبو بكر (رضي الله عنه) ابنه عبد الله بأن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا

أمسى في الغار وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسى في الغار بما يصلحهما.(70)

ولما نجا الرسول ﷺ وأبو بكر (رضي الله عنه) من مؤامرة قريش، هاجت عواطفهم، فأرسلوا الطلب في كل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد ﷺ أو يقتله، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، فأخذ أبا بكر الروع، فقال الرسول ﷺ: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما".(71)

ولا شك أن النبي ﷺ لم يختر طريق المدينة المعروفة التي كان يستخدمها الناس عادة، فعدوله عنها لم يكن سوى تدبيرا وقائيا، حتى لا يتعرض لشيء يكرهه، حيث لحق بهما الدليل فاختار الطريق إلى المدينة من ناحية الجنوب، واتجه نحو غار ثور حيث لحق بهما الدليل وهو عبد الله بن أريقط.

إن هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب لم تكن مصادفة، ولا خوفا ولا فرارا من مؤامرة الأعداء ضده كما يحكي بعض المؤرخين، وإنما كانت في الواقع حسب خطة أعدت من الأول وحيا من الله. فكانت الهجرة نصرا مؤزرا للمؤمنين، وكانت بمثابة استعداد تام لنشر الإسلام في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية أولا ثم في جميع أنحاء المعمورة من أقصاها إلى أقصاها.

12. حياة النبي ﷺ في يثرب وتأسيس مجتمع جديد

وقد كانت هجرة النبي ﷺ إلى يثرب وحيا من الله سبحانه وتعالى، ولذلك نرى إنه لم يتوقف عند وصوله ﷺ إلى قباء، وإنما واصل سيره إلى المدينة، فالتفت من حوله الأنصار، كل يمسك زمام راحلته يرجو النزول عنده، فكان النبي ﷺ يقول لهم: (دعوها فإنها مأمورة) حتى وصلت إلى مربد وبركت في موضع لغلامين يتيمين من الأنصار (سهل وسهيل ابني عمرو) وكانا في كفالة أسعد بن زرارة (رضي الله

عنه) فابتاعه منهما ليبنيه مسجدا له. وأقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وباشر النبي ﷺ في بناء المسجد، ودأب المسلمون من المهاجرين والأنصار على مشاركته في بنائه، حتى أتموه وأقاموا حوله مساكن الرسول ﷺ (72).

فبناء المسجد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ. يعني أنه كان بمثابة أول أساس لأول دار للإسلام إذ ذاك على وجه الأرض. وقد كان ذلك إيذانا بظهور الدولة الإسلامية التي أنشأها النبي ﷺ.

والأساس الثاني الذي وضعه النبي ﷺ لإقامة ذلك المجتمع الأفضل هو المؤاخاة بين المسلمين عامة والمهاجرين والأنصار خاصة، وذلك لشيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين الذي لا يتم إلا في المسجد.

والأساس الثالث كان لا بد من وضعه، وهو كتابة وثيقة أو (دستور العمل) لتحديد نظام لحياة المسلمين فيما بينهم، ولتوضيح حدود علاقتهم مع غيرهم بصفة عامة واليهود بصفة خاصة.

وهذا العمل الثالث كان لا بد منه لحماية ذلك المجتمع الإسلامي الجديد القائم على النظام الإسلامي، لتكون روح التعاون بين سكان يثرب، وتشيع روح المساواة والعدل فيما بين المسلمين في شؤونهم في الظروف المختلفة.

1. وأما بالنسبة للأساس الأول الخاص ببناء المسجد فكان رسول الله ﷺ يباشر البناء مع أصحابه، وينقل معهم الحجارة بنفسه، وجعل قبلته إلى بيت المقدس، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وأما أرضه، فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء.

2. وجاء في رواية ذكرها البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، أنه ﷺ كان يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم،، ثم أمر ببناء المسجد.(73)

وقد ظل مسجد الرسول ﷺ على هذا الشكل دون أي زيادة أو تغيير فيه طول مدة خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ثم زاد عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) للتحسين، إلا أنه قام ببنائه على بنائه السابق (الذي تم تشييده في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا. ثم غيره عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، بزيادات كبيرة، حيث أنه بني جداره بالحجارة المنقوشة.

3. وأما المواخاة، فكانت هي أساس الأخوة بين المسلمين، فأخي النبي ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، على الحق والمواساة، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات، حتى تكون رابطة الأخوة الإسلامية أقوى من قرابة الرحم (رابطة الدم).

ثم ربط النبي ﷺ هذا التآخي بين أفراد الصحابة بنظام عام من الأخوة والموالاة. حتى أصبح المؤمنون كلهم إخوة، على أساس (إنما المؤمنون إخوة) فأية جماعة كانت لا تؤلف بينها آصرة المودة والتأخي الحقيقية لا يمكن أن تتحد على أية كلمة، وما لم تكن الوحدة حقيقية قائمة في الأمة أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألف منها دولة.

13. وثيقة التعاون والتضامن بين أهالي المدينة:

كتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وضع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم، وأموالهم بشروط لهم وعليهم.

فنحن نذكر هنا البنود الهامة التي وردت في نص كتابه ﷺ، وذلك لتقييم القيمة الدستورية للمجتمع الإسلامي الجديد أو لدولة الإسلام الناشئة في المدينة.

وهذه البنود هي حسب ترتيبها في نص الكتاب:

1. المسلمون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس.
2. هؤلاء المسلمون جميعا على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
3. إن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه في فداء أو عقل.
4. إن المؤمنين المتقين، على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.
5. لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.
6. إن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
7. ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.
8. لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو أن يؤديه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف أو عدل.
9. اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين.
10. يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، ولليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
11. إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

12. كل ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله.
13. من خرج من المدينة آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم.
14. إن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن بر واتقى.

هذه هي المبادئ الكلية الواضحة لنظام الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة وخارجها. وهذا هو الأساس الذي اتفق عليه الجميع من المسلمين وجيرانهم اليهود. إن هذه الصحيفة تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية.

ثم إن هذه الوثيقة تدل على العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ مع اليهود، وكان يمكن أن تثمر هذه العدالة في التعايش السلمي بين المسلمين واليهود فقد غلبت عليهم طبيعتهم من حب المكر والغدر والخيانة، فما كانت هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعا بما تضمنته بنود هذه الاتفاقية التي التزموا بها، فخرجوا على النبي ﷺ والمسلمين بألوان شتى من الغدر والخيانة.

14. غزوات النبي ﷺ في العهد المدني من حياته

لا شك أن رسول الله كان قد بعث رحمة للعالمين، وكان يعاني كثيراً من المعاناة من هؤلاء المشركين والمنافقين واليهود من أهل الكتاب في العهدين المكي والمدني، حتى نرى في قوله تعالى: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا). (الكهف: 6).

1. فكان الأنبياء كانوا يواجهون كل أنواع من المشاكل، إلا أنهم اختاروا طريق الصبر والثبات، حتى قال النبي ﷺ: إنني لن أنسحب من الدعوة إلى الحق أبدا، حتى جاءوا بالشمس والقمر ووضعوهما في يدي، يعني كان يريد النبي ﷺ الأمر المستحيل، يعني أنه لن يترك الدعوة إلى الله الواحد، حتى ولو قام هؤلاء بالأمر المستحيل، حتى أبلغ رسالتي أو أفتدى بنفسي في سبيلها.

2. وكان لا يريد النبي مثل غيره من الأنبياء من هؤلاء المشركين أي أجر، وكان يؤمن بأن أجره عند الله سبحانه وتعالى. فكان يريد أن يهدى قومه إلى الصراط المستقيم بصفاء القلب بدون مقابل.
3. فكان يريد أن ينقذهم من النار وهم مصرون على الوقوع في حفرة من النار، فكان يحزن لعواقبهم السيئة.
4. وكان يرى عواقبهم رأي العين، وهم يذوقون عذاب الحريق، فهناك فرق بين من يتصور ما هو عذاب الحريق. ولكن النبي كان يشاهد أنهم يلقون في النار.

إن رسول الله ﷺ كان جامعاً للرسالات السابقة، وكان قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق والفضائل، لأنه بعث إلى الناس كافة، فكان أفضل من جميع الأنبياء وأشرف من جميع المرسلين، لأن كل واحد منهم عليه السلام كان قد بعث إلى قومه، فكانت مسئولية رسالته أن تنقذ قومه من الضلالة إلا أن النبي ﷺ قد بعث لينقذ البشرية كلها من العذاب في الدنيا والآخرة. فكانت مسئولية ﷺ أكبر من مسئولياتهم ومن مسئوليات رسالاتهم.

وكان من الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله سبحانه وتعالى من أن يلاقى الرسول ما لاقى من المحنة في طريق الدعوة أن يستخف بها عامة المسلمين في كل عصر ممن أحيطت بهم مسئولية الدعوة إلى الإسلام.

فناخذ العبرة من أصحاب الطائف الذين جلس إليهم النبي ﷺ ودعاهم إلى الله، فردوا عليه ردا منكرا، وتلقى منهم الغلظة وسمج القول ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجل رسول الله ﷺ لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج حتى وصل النبي ﷺ إلى بستان لعتبة بن ربيعة، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد ﷺ وقد أنهكه التعب والجراح إلى ظل شجرة عنب، فلما اطمأن النبي

ﷺرفع رأسه ليناجي ربه بهذا الدعاء: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي.. إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي..) أن الشكوى إلى الله تعبد، والضراعة له والتذلل على بابه تقرب وطاعة، وللمحن والمصائب حكم، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلى باب الله تعالى وتلبسه ثوب العبودية له. فليس إذن بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله تعالى أي تعارض. والنبيﷺ كان لا يدعو على من ظلمه، لأنه كان يتوقع ويرجو بأن هناك سيأتي من أجيال هؤلاء من يؤمن بالله ورسوله بالضرورة. وشاهد الرسول ﷺبعينيه في حياته بعد مدة وجيزة أثمار جهوده وتعبه في سبيل الدعوة حين أسلم هؤلاء الذين كانوا يوما يضربونه بالأحجار حتى أصبحت الهجرة إلى الطائف جزءا مهماً من سيرة النبي ﷺ. وهذه الهجرة هي التي كانت مقدمة للهجرة إلى يثرب التي كانت مقدمة للفتح المبين، ودخول الناس في دين الله أفواجا.

والغزوات التي دار فيها القتال واشترك فيه النبي ﷺهي كلها أمثلة رائعة لعطفه وشفقته لبني جنسه من البشر، إن الرسول ﷺ لم يرغب قط في أن تندلع الحروب، لأن الدين الذي جاء به كان رسالة الصلح والأمن والمحبة والأخوة والفلاح والرفاهية والمساواة والحرية لعالم الإنسانية. ولم يكن فيه مكان للحرب وجمع الغنائم والأسلاب ولا لأي نوع من العصبية والعداوة ولكنها حدثت بسبب الغرور والنخوة والتكبر الأحمق والظلم من قريش مكة، لأن حياة الإنسان الكريم الشريف كانت صعبة، حيث كان لا يستطيع يعيش بعقيدته، ويعبد ربه الواحد كما يشاء، حتى هاجر المسلمون إلى أراضي الحبشة تاركين بيوتهم وأهاليهم وأموالهم ووطنهم في سبيل الحفاظ بدينهم وعقيدتهم، وحرياتهم حتى ولم يبق أمامهم سبيل سوى ما ذكر الشاعر الجاهلي الشنفرى:

وفي الأرض منأي للكريم عن الأذى *** وفيها لمن خاف القلى متعزل. (74)

حتى لم تتركهم قريش ليتنفسوا بأنفاس الأمن والاطمئنان ويعيشوا بحرية العقيدة، وإنما أرسلت لاسترادهم من أراضي الحبشة، ثم هاجروا إلى يثرب ليحافظوا على دينهم وعقيدتهم، ولكن قريشا هددتهم أنها ستأتى إليهم وتحاربهم في عقر دارهم وتحارب من نصرهم وآواهم. ثم من العجب أن كبار المؤرخين سموا جميع تلك الغزوات بالغزوات، وذلك على الرغم من أنها لم تكن كلها غزوات مثل تلك الحوادث التي حدثت ببئر معونة وبيوم الرجيع لا يمكن أن تسميها غزوات على وجه الإطلاق، لأن هؤلاء الأصحاب الذين بعثوا إلى حيث بعثوا لم يبعثوا للقتال والغزوات، وإنما بعثوا معلمين ومقرئين ودعاة لدين الله سبحانه وتعالى، وكان عددهم الإجمالى لا يتجاوز عن ثمانين رجلا، بعث منهم سبعون إلى بئر معونة وعشر إلى الرجيع، ولم يكن لهؤلاء أي علم لذلك الغدر المفاجئ، ولم يعش منهم إلا واحد، والباقون كلهم أستشهدوا، وهذه الخسارة البشرية أيضا لا يمكن احتسابها ضمن خسائر حرب.

ومعلوم أن بيعة العقبة كانت بيعة دفاعية تعد فيها الأوس والجزرج بحماية النبي ﷺ ولم يعاهدوه، ولا عاهدوا أحدا ممن معه على العدوان، فلا ينبغي أن نسلم بأن تلك السرايا والرحلات أو الجولات الاستطلاعية كان يقصد بها القتال بالفعل. وإنما تلك السرايا الأولى إنما قصد بها إلى إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضى التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الهجرة من مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد، وأن مثل هذا التفاهم يقى الطرفين شرور العداوة والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين، ولأهل مكة سلامة تجارتهم في طريقها إلى الشام.

ولم يكن مثل هذا التفاهم أمرا ممكنا ما لم تقدر قريش قوة المهاجرين على الإيقاع بها، وإيصاد طريق التجارة في وجهها، ولذلك رجع حمزة بن عبد المطلب

ومن معه من المهاجرين الذين لقوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيرة لأول ما حجز مجدى بن عمرو الجهنى بينهما، وكذلك نرى كثرة اتجاه المسلمين بسراياهم إلى طريق تجارة مكة في عدد لا يسهل معه تصورهم مقدمين على الحرب.

وكذلك يرى صاحب كتاب (حياة محمد) أن حرص النبيﷺ على موادعة القبائل المقيمة على طريق هذه التجارة، والتحالف معها تحالفا وصل خبره إلى قريش يدل على أن قريشاً لعلها تعود إلى التفكير في التفاهم والاتفاق. ويدعم رأيه ويقول إن النبيﷺلما خرج إلى بواط وإلى العشيرة كان من بين من رافقوه عدد غير قليل من الأنصار من أهالي المدينة، والأنصار إنما بايعوه ﷺ ليدفعوا عنه، لا ليهاجموا معه، ورأينا ذلك صريحا عند غزوة بدر الكبرى، حين كان النبيﷺ متردداً دون القتال حتى يوافق عليه الأنصار، (75) فالقول إذاً بأن حمزة أو عبيدة بن الحارث أو سعد بن أبي وقاص إنما خرجوا لحرب قريش مرفوض. وكذلك تسمية سراياهم غزوات مرفوض عندنا، وكذلك القول بأن النبي ﷺخرج إلى الأبواء وبواط والعشيرة غازيا عليه ملاحظات تنكر هذا القول. السرايا.

وكذلك تلك السرايا التي كان فيها رجلان فقط (ونلاحظ خمس سرايا من هذا القبيل) أو كان فيها خمس أنفار (ونلاحظ سريتين من هذا القبيل) أو كان فيها عشر أنفار (سريتين من هذا القبيل) وكان فيها اثنا عشر من العساكر (سريتان على هذا النحو) أو كان فيها خمسة عشر من العساكر (ثلاث سرايا على هذا النحو) أو كانت تشتمل على عشرين (أربع سرايا على هذا النحو) أو خمس وعشرين عسكريا (سريتان) أو ثلاثين عسكريا (خمس سرايا) أو أربعين عسكريا (سريتان على هذا النحو) فنجد 27 سرية، لا يمكن أن نسمي أنها بعثت للغزو والقتال، وإنما تلك السرايا بعددها القليل كانت قد خرجت من المدينة للاستعلامات لمعرفة حركات وتنقلات العدو ونواها العدوانية، وخاصة أن العدو كان يهددهم

دائماً، فخرجت بعض من تلك لتخويف العدو، حتى لايفكر في الغزو والقتال وإنما يعرف ويعترف بوجود قوة المسمين في يثرب. بل يمكن أن نقول إن تلك السرايا كانت قد أرسلت ضمن اتخاذ تدابير دفاعية ووقائية محضة على أساس الفتنة أشد من القتل، وذلك نرى أن معظم تلك السرايا صالحت وحالفت ثم رجعت إلى المدينة بعد الموادعة.

- وكذلك صلح الحديبية لم يكن غزوة، بل الهدف كان أداء العمرة، فاتفق الطرفان على الصلح لمدة عشر سنوات، وكان عبارة عن أن يرجع النبي ﷺ هذا العام ثم يأتي لأداء العمرة العام القادم، فتخرج قريش إلى المناطق الجبلية لثلاثة أيام.
- كذلك بعض السرايا شكلت لمتابعة سير العدو الذي قتل بعض أفراد القبائل، وأشعل النار في الحرث وهرب كما فعل أبو سفيان في حادث السويق، فلم تكن غزوة السويق غزوة أصلاً. وإنما شكلت تلك السرية في حالة الطوارئ لمطاردة العدو.
- وكذلك شكلت بعض السرايا للمعاهدة مع القبائل المجاورة للمدينة، وذلك لتضييق دائرة فتنة العدو، وللمحافظة على سلامة هؤلاء الأفراد الذين كانوا يعانون من عمليات النهب والسلب من العدو. أو كانوا يعيشون تحت رحمتهم.
- وكذلك جاء بعض الناس من الخارج وكانوا مصابين بالأمراض، فلاستضافتهم تم وضعهم في المراعى حيث يوجد الهواء الطلق، للشفاء العاجل إلا أنهم حين أصبحوا سالمين، قتلوا الراعى وهربوا بالإبل، فكان لا بد من مطاردتهم فتعاقبت الخطوات، وأخيرا تم القبض على هؤلاء اللصوص

الهاربين القتلة، ثم تم ترجيع كل واحد منهم إلى نصابه المناسب من العقوبات.

هذه السرايا وما قامت به تلك من العمليات هي ليست جديرة بأن نعتبرها غزوة أو حرباً منظمة أبداً. وهكذا زاد عدد الغزوات في العهد النبوي، ولكنها لم تكن أصلاً غزوات. وكذلك شوهدت بعض العمليات الاستفزازية من قبل بعض القبائل ضد المدينة وأهاليها، وذلك لاسترضاء قريش التي كانت تكرم كل من كان يضر المسلمين، فاتخذت إجراءات لازمة ضد هؤلاء الأشرار والمفسدين على الفور، حتى ولو كانت الخسائر البشرية من كلا الطرفين، لا يمكن نسميها غزوة أو حربا نظامية، فكانت الخسائر البشرية في تلك السرايا التي يصل عددها إلى سبعين على النحو التالي:

15. الخسائر البشرية في السرايا والاشتباكات

فريق	خسائر بشرية
مسلم	96
مشرك	188

وكذلك لم يتم حصر عدد المقتولين من جانب العدو، ولكنه لم يتجاوز عن 15 أو عشرين شخصاً. وليس عدد القتلى من بني قريظة ضمن العدد المذكور، الذين قتلوا على تحكيم سعد بن معاذ الذي عينوه هم على منصب التحكيم بعد الغدر والخيانة في غزوة الخندق أو الأحزاب، إلا أن تلك العقوبات كانت حسب شريعة اليهود الموسوية، وكانت امرأة يهودية أيضا ضمن هؤلاء اليهود المقتولين، لأنها كانت قد قتلت مسلماً، بعد أن ألقت حجراً ثقيلاً على رأس ذلك المسلم المقتول. فعقوبتها كانت هي الإعدام على أساس الدم بالدم. فعدد كل من هؤلاء لم يدخل

ضمن عدد المقتولين في الحرب، كما لا يدخل عدد شهداء بئر معونة والرجيع ضمن عدد المقتولين في المعارك أو الغزوات.

16. الغزوات النظامية:

والغزوات التي يمكن أن نسميها حربا أو غزوة، هي كانت قد فرضت من قريش مكة على المسلمين، وحارب المسلمون في تلك الغزوات دفاعا عن أنفسهم كما حدث سرية عبد الله بن حجش، فكان أول حادث من نوعه يدل على روح قوى في سموه، وإنسانى في قوته فالقرآن الكريم يجيب المشركين عن سؤالهم عن القتال في الشهر الحرام أ هو من الكبائر، ويقرهم على أنه كذلك أمركبير ولكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر فالصد عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام والقتل فيه. وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل في الشهر الحرام وغير الشهر الحرام، فكانت قريش وكان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعاً، فسرية عبد الله بن حجش كانت على مفترق الطريق بين السلم والحرب في الإسلام، وفيها نزلت الآية: (يسألونك عن الشهر الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا). (76) وعلى أثرها شرع قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدون عن سبيل الله، هذه السرية هي التي جعلت كلا الفريقين يتناظران بأساً وقوة، فقد جعل المسلمون يفكرون بالجدية في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم، ذلك بأن قريشا حاولت إثارة الجزيرة العربية كلها على النبي وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقن النبي ﷺ أن هناك لم يبق بريق من الأمل في مصانعتهم أو في اتفاق معهم.

1. غزوة بدر الكبرى:

قد خرج أبو سفيان في أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي إلى العشيرة. ولكنهم إذا بلغوها كانت قافلة أبيسفيان قد مرت بها ليومين من قبل وصولهم إليها، إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها، ولما حان وقت انصرافها من الشام بعث النبي رجلين من أصحابه ينتظران خبرها، على أن النبي ﷺ لم ينتظر رسوليه، وما يأتيان به من خبر العير، فقد ترامى إليه أنها عير عظيمة، وأن أهل مكة جميعا اشتركوا فيها، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء استطاع أن يساهم فيها بحظ إلا فعل، حتى قوم ما فيها بخمسين ألفا من الدنانير، وكان يتوقع أن أرباح هذه العير ستصرف في استعدادات حربية ضد المسلمين. لذلك ندب النبي ﷺ المسلمين وقال لهم: (هذه عير قريش، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) وخف بعض الناس وثقل بعضهم. فانطلقوا حتى أتوا واديا يقال له ذفران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشا قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. إذ ذاك تغير وجه الأمر، لم يبق هؤلاء المسلمون أمام أبوسفيان وعيره و الثلاثين أو الأربعين رجلا من حماة العير. بل هذه مكة خرجت كلها، وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها، ففكر المسلمون في أنهم لو تغلبوا على أبي سفيان و رجاله، وأسروهم، واقتادوا إبله وما عليها من البضائع، فلن تلبث قريش أن تدركهم، وهي حريصة على مالها و الدفاع عنه، وتؤازرها كثرة عديدها وعددها، و أن توقع بهم و أن تسترد الغنيمة منهم أو تموت دونها. ولكن إذا عاد النبي ﷺ إلى المدينة، طمعت قريش، وكذلك طمعت يهود المدينة فيه، واضطر إلى موقف المصانعة من موقع الضعف، وإذن اضطر أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى اليهود في المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش مكة، فاستشار الناس في أمر هذا الموقف الخطير: في الانسحاب أو في الصمود لتعلو

كلمة الحق وأن ينصر الله دينه الحق. فجعل الله سبحانه وتعالى أول حرب بين الحق والباطل. فالمسلم هو الذي إذا وجد نفسه في حلقة أصحابه وأحبائه لكان أنعم وأملس من خيط الحرير، ولكنه إذا وجد نفسه في الحرب بين الحق والباطل، لكان أقوى وأعنف وأشد من الحديد والصلب.

2. غزوة أحد:

إن قريشاً لم تهدأ منذ هزيمتها في بدر، ولم تغنها غزوة السويق شيئا، بل زادتها سرية زيد بن حارثة التي أخذت تجارتهم حين اتخاذها طريق العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وإذكارًا لقتلى بدر.

فحين قدم أبوسفيان بن حرب بالعير التي كانت سبب بدر من الشام، وعاد الذين شهدوا بدرا، وسلموا من القتال فيها، قد وقفت العير بدار الندوة، واتفق كبارها على أن تباع العير وأن تعزل أرباحها، وأن يجهز بها جيش جرار في عدده وعدته لقتال النبي ﷺ. وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشا في أخذهم بالثار من المسلمين. فخرجت قريش تقصد المدينة في ثلاث ألوية عقدت في دار الندوة، وعلى اللواء الأكبر منها طلحة بن أبي طلحة وهم ثلاثة آلاف معظمهم من مكة: سادتها ومواليها و أحابيشها، و قد أخذوا معهم كمية كبيرة من العدة والأسلحة، وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير، ومن بينهم سبعمائة دراع.

فلما جاء النبي ﷺ من خبرهم بالذي أخبره عمه عباس، أصابته الحيرة. فخشي الأوس والخزرج وأهل المدينة جميعا عواقب هذه الغزوة التي أعدت لها قريش خير ما أعدت في تاريخ حروبها، حتى لقد بات المسلمون من وجوه المدينة، وعليهم السلاح بالمسجد خوفا على حياة النبي ﷺ. وحرست المدينة كلها طيلة الليل في تلك الحالة للطوارئ. فلما أصبحوا جمع النبي ﷺ أهل الرأي من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام يعني المنافقين، ليتشاورهم كيف يلقون عدوهم. فرأي النبي ﷺ

أن يتحضوا بالمدينة، وأن يدعوا قريشاً خارجها، فإذا حاولوا اقتحامها كانوا أهلها، فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم. ولكن الكثرة قد ظهرت واضحة في جانب الذين قالوا بالخروج إلى العدو وملاقاته. قال النبي ﷺ إني أخاف عليكم الهزيمة، فأبوا مع ذلك إلا الخروج، فلم يكن للنبي ﷺ إلا أن ينزل على رأيهم. وقد كانت الشورى أساس نظامه ﷺ لهذه الحياة، فلم يكن ينفرد بأمر إلا ما أوحي إليه من عند الله. ثم دخل النبي ﷺ بيته، والناس أثناء غيبته هذه في جدل يتحاورون، فلما خرج النبي ﷺ إليهم لابسا درعه متقلدا سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: (ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك، فاصنع ما بدالك) وعنئذ قال الرسول ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه) ثم انصرف اليهود عائدين إلى المدينة، وهم كانوا حلفاء ابن أبي، فانسحب ابن أبي برجاله قائلاً: أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه، فبقي النبي ﷺ ومعه المؤمنون حقا وعدتهم، ليقاتلوا ثلاث آلاف من الجيش القرشي الجرار.

وسار المسلمون صباحا حتى بلغوا أحد، وقد عين النبي ﷺ منهم خمسين من الرماة على شعب في الجبل، وقال لهم: احموا لنا ظهورنا... فلا تفارقوا مكانكم... حتى في حالة النصر.

وفي الواقع أن انتصار المسلمين في صبيحة يوم أحد كان معجزة من معجزات الحرب، حيث هاجم المسلمون عددا يوازى خمسة أمثالهم، وعدة في مثل هذه النسبة. وإنما الذي دفعهم إلى معجزات البطولة كان هو الإيمان الصادق بأنهم على حق. ومن آمن بالحق لم تزعجه قوة مادية، مهما عظمت، ولم تضعضع من عزمته كل قوات الباطل وإن اجتمعت، ولكن القوة الكبرى كانت هي قوة الفكرة، وقوة العقيدة: قوة الإيمان الصادق بالحق العلي القدير الأعلى، هذه القوة لاغالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده، فهو قادر على أن يغير مجرى التاريخ ولذلك

تمزقت قريش في ثلاثة آلاف من فرسانها أمام هجمات سبعمائة أو تسعمائة مسلم، إلا أن ميزان الحرب انقلب حين فارق الرماة أماكنهم، حتى قال قائل منهم: (ألم يقل لكم رسول الله ﷺ لاتبرحوا مكانكم) ثم تفرقت الصفوف وانشغل الجميع بجمع الغنائم، ولم يبق على مكانه سوى نفر دون العشرة، إذ ذاك انتهز الفرصة خالد بن الوليد، وصاح صائح بالناس: إن محمدا قد قتل، فازدادت الفوضى وعظمت المصيبة، إلا أن الرسول تمالك وسار وأصحابه من حوله، ثم صاح أنس بن النضر فقال: فما تصنعون بالحياة بعد النبي ﷺ، قوموا، فموتوا على ما مات عليه النبي ﷺ. ولما عرف العدو أن محمداً قد مات انصرف، لأن في عيونهم رأس محمد كانت هي نقطة مركزية للنصر والهزيمة، فرجعوا من غير تحقيق هذا الهدف، وأن النبي ﷺ كسب ميدان المعركة، حيث أنه ﷺ اكتسب أكثر ممن فقدهم في غزوة أحد، من المؤمنين به ورسالته الخالدة.

3. غزوة الأحزاب أو الخندق:

وكذلك غزوة الأحزاب كانت نتيجة مؤامرة مشتركة لقريش مكة ويهود المدينة (بني قريظة) والقبائل العربية الأخرى، فبعد إجلاء يهود بني النضير وبعد بدر الآخرة، وبعد غزوتي غطفان ودومة الجندل آن للمسلمين أن يركنوا إلى شيء من الطمأنينة، وأن ينظموا حياتهم ولكن النبي ﷺ كان يعلم أن الحرص على الثأر من تركيب عجينة الغريزة العربية، فكان أشد ما يكون حذرا. وكانت قريش وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير، وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتأخمة للشام تتربص كل واحدة منها بالنبي ﷺ وأصحابه وكانت تود أن تجد فرصة لأخذ ثأرها من النبي ﷺ.

فكان حيي بن أخطب واليهود الذين كانوا معه قالوا لقريش في تفضيل وثنيتها على توحيد النبي ﷺ حتى تنشط لمحاربته، بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان

من قيس عيلان وبني مرة وبني فزارة و أشجع وسليم وبني سعد ومن كل من لهم ثأر عند المسلمين، وما زالوا بهم يحرضون على الأخذ بثأرهم، ويشجعونهم على متابعة قريش أياهم على حرب النبي ﷺ ويعدونهم النصر لا محالة. فخرجت الأحزاب التي جمعها اليهود لحرب النبي ﷺ وأصحابه، وخرجت قريش، وعلى رأسها أبو سفيان في أربعة آلاف جندي مجند وثلثمائة جواد وألف خمسمائة بعير.

فكانت غزوة الأحزاب التي اشتركت فيها عشرة آلاف مقاتل من قبل المشركين، بمساندة بنو قريظة نتيجة مؤامرة يهودية ماكرة، وكان من الطبيعى أن يدافع المسلمون عن أنفسهم من أعدائهم الذين جعلوا كتلة لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه في عقر دارهم، وكان لهم حق الدفاع الشرعي عن دينهم وعقيدتهم ومدينتهم وأهاليها من النوايا الخبيثة التي لا تعرف سوى الغدر والخيانة.

فحفر المسلمون خندقا لحماية المدينة بعد اقتراح صحأبي جليل اسمه سلمان الفارسي (رضي الله عنه) وحفر الخندق لم يكن طريق الدفاع مألوفا عند العرب. ففوجئ المشركون وعلى رأسهم أبوسفيان بن حرب، وبذلك الخندق سميت تلك الغزوة بالخندق أو بغزوة الأحزاب التي تجمعت لمحاربة المسلمين.

4. غزوة بني قريظة:

قد زال خوف المسلمين بعد انسحاب أبي سفيان والأحزاب الموالية لقريش من الخندق، لقد أذهب الله عنهم عدوهم الذي كان يهدده، ولكن اليهود كانوا يقدرون على أن يعودوا لمثلها. إلا أن الانشقاق كان قد وقع في صفوفهم بعد ارتحال الأحزاب، ولم يحدث خطر اليهود المتوقع، فكان لا بد من القضاء على يهود بني قريظة، الذين خانوا كل العهود والمواثيق مع المسلمين واشتركوا في الحرب ضدهم. إذا كان الموقف لا يزال خطيراً، كما يقول المثل: (لا يقطعن ذنب الأفعى وتتركها) واليهود هم الذين كانوا رأس الفتنة يعني رأس الأفعى. فتم حصارهم لمدة خمس

عشرين يوما، ثم نزلوا على حكم النبي ﷺ، وحكم فيهم سعد بن معاذ باعتبارهم مجرمي الحرب الخونة. فقتل المقاتلون منهم.

5. غزوة خيبر:

هذه غزوة أيضا كانت نتيجة لمؤامرة يهودية ضد أهالي المدينة، إنهم هم الذين حرضوا غطفان والقبائل العربية الأخرى للهجوم على المدينة، فكان لا بد من إخماد نار الفتنة قبل أن تندلع الحرب، وذلك حقنا لدماء كثير من الضحايا.

6. غزوة مؤتة:

كما هو معلوم أن اسم حاكم مؤتة كان شرجبيل، وكان مسيحيا، إنه ارتكب جريمة بقتل مبعوث رسول الله ﷺ ظلما وعدوانا، وقتل السفراء والمبعوثين كان ولا يزال يعتبر جريمة نكرى في المجتمع العالمي، فأرسل المجاهدون للأخذ بالثأر، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، فمنى العدو بعدده الكثير بالهزيمة، وكان عدده يربو على مائة ألف جندي، فلاذ بالفرار وترك ميدان المعركة خاليا.

7. فتح مكة:

إن قريشا نقضت صلح الحديبية، تلك الاتفاقية التيكانت قد أبرمت بين قريش والمسلمين، وكانت مدة صلاحيتها عشرة سنوات، فكانت قبيلتان عربيتان، إحداهما كانت متحالفة مع قريش، وأخراها كانت متحالفة مع المسلمين، القبيلة المتحالفة مع قريش هاجمت القبيلة المتحالفة مع مسلمي المدينة، وذلك بتحريض قريش، وكان يخاف أن تشتعل الحرب بينهما وتنتشر في الحرم الملكى. فعرض الرسول ﷺ أمرين: الأول هو- إما أن يدفع القاتل الدية لأصحاب المقتولين الآخذين بالثأر، الذين قتلوا في عملية العدوان بدون سبب، - والثانى هو - إما أن تتخذ قريش موقفا محايدا بينهما ثم يتخذ المسلمون قراراً مناسبا بهذا الشأن. فلم يقبل قريش أي

واحد من الأمرين ولا هذا، ولا ذاك. فلم يبق سبيل أمام المسلمين سوى فتح مكة، فتحرك الجيش الإسلامي نحو مكة، ففتحوها من غير قتال.

8. غزوة حنين:

وبعد فتح مكة استقر الوضع نسبيا، فعاش المسلمون لفترة قصيرة من الزمن في الأمن بالهدوء، والغبطة والسرور. ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولكن مدة الهدوء والأمن لم تدم طويلا، حتى بلغ النبي ﷺ بعد أسبوعين تقريبا من الفتح أن هوازن وثقيف تستعد لحربه، وعلى رأس هؤلاء مالك بن عوف سيد هوازن الذي حشد النساء والأطفال والأموال، حتى يشجعهم على القتال ولا يفكروا في الفرار من القتال، وتربصوا بالمسلمين في مكانهم وهم في عماء الليل، فخرج رسول الله ﷺ في حوالي اثنى عشر ألفا من المسلمين، فاختل نظام صفوفهم بسبب رماة هوازن، واضطربت موازين الحرب، وانقلبت كما انقلبت يوم أحد وأشار الله تعالى إلى ذلك الوضع في قوله: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين، اِذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين...) (سورة التوبة) فبدأ ينادي الرسول ﷺ: أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله محمد بن عبد الله. وساءت أحوال المسلمين، فأمر النبي ﷺ عمه العباس بأن ينادي بصوته القوي، فتسارع المسلمون في الوصول إلى النبي . ولكن الوضع تغير بعد أن زال ظلام الليل، وخرج المشركون من مكانهم في ضوء النهار. ثم شوهد دور المسلمين الباسلين البطولي في ساحة القتال وعندئذ قال الرسول ﷺ: الآن حمي الوطيس، فواجه المسلمون، والانتصار كان نصيبا للمسلمين، وإما مالك بن عوف فهرب إلى الطائف، فطارد المسلمون العدو حتى أسوار الطائف، وثم تم حصار الطائف، ثم تبادل الفريقان التراشق بالنبال. فاستخدم المسلمون المنجنيق لأول مرة في الحرب، إلا أن المشركين لم يخرجوا من مخابئهم. فرجع

الرسول ﷺ إلى جعرانة، لتقسيم الغنائم، وبعد أن فرغ من توزيع الغنائم كان قد حل شهر ذى القعدة، فرجع الرسول ﷺ معتمرا إلى مكة حتى تنتهي الأشهر الحرم. فقد انتشر الإسلام في جميع انحاء الجزيرة العربية، ثم جاءت وفود هوازن والطائف إلى النبي ﷺ، وأعلنت أسلامها.

9. غزوة تبوك:

كانت في التاسعة للهجرية بلغ النبي ﷺ خبر من التجار الأنباط الذين كانوا ينتقلون بين المدينة ودمشق أن جيوش الروم تجتمع على الحدود بين الشام والجزيرة العربية للهجوم على المدينة، وذلك بمساندة النصارى من العرب الغساسنة، فخرج إليهم النبي ﷺ في ثلاثين ألف من المجاهدين المسلمين نحو تبوك على حدود الشام، وبعد ما وصل إلى تبوك، أقام بها، مدة لاتقل عن بضعة وخمسة عشرة يوماً، لم يلق كيدا فيها، فصالحه النبي ﷺ أهلها من جرباء وأذرح بعد أن قبلت دفع الجزية، ثم كتب لهم النبي ﷺ كتابا أو وثيقة كضمان الأمن والسلام في تلك المنطقة. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى دومة الجندل، فأسر ملكها، وقتل أخوه اسمه حسان، وقدم خالد إلى النبي ﷺ بأكيدر،فعفا عنه، وحقن دمه. وغزوة تبوك تعد آخر غزوة غزاها النبي ﷺ في حياته الطيبة.

وهنا ننقل تلك القائمة التي دونها القاضي محمد سليمان المنصوربورى، والتي تحكي لنا عن الخسائر البشرية في غزوات الرسول ﷺ.

10. قائمة الخسائر البشرية في غزوات النبي ﷺ

اسم الغزوة	خسائر بشرية للمسلمين	خسائر بشرية للكفار والمشركين	روايات مختلفة
بدر الكبرى	22	70	وقد ذكر عدد الشهداء 14 في الروايات عامة.
أحد	70	30	وذكر أن عدد قتلى المشركين كان 23 في الروايات عامة.
الأحزاب أو الخندق	6	10	وذكر عدد القتلى للمشركين 4 فقط في الروايات عامة.
خيبر	18	93	
مؤتة	12	غير معلوم	
حنين	6	71	وقد ذكر ابن حزم عدد الشهداء في غزوة حنين 4 أنفار فقط.
حصار الطائف	13	غير معلوم	
تبوك	*	*	
الميزان الكلي	147	274	

إن هذا العدد المجموعي لا يشتمل على قتلى المعارضين في مؤتة والطائف، إلا أن عددهم ليس بكثير. والذين قتلوا يوم فتح مكة لم يذكر عددهم في هذه الخريطة، لأنهم ذكروا في الأعداد السابقة، وعددهم ليس بكثير، وإنما استشهد مسلمان وأحد عشر من غير المسلمين المحاربين. وكذلك لم يذكر عدد هؤلاء الذين استشهدوا يوم الرجيع وبئر معونة، لأنهم كانوا قد ذهبوا للدعوة والتبليغ ولم يخرجوا

للحرب والغزو. ولكن إذا أضفنا عدد هؤلاء إلى الأعداد السابقة لكان عدد المسلمين (بإضافة 79شخص) قد وصل إلى 342 فقط ولا غير.

وكذلك لا تشتمل هذه القائمة على قتلى بني قريظة، لأنهم لم يقتلوا في غزوة، وإنما قتلوا باعتبارهم مجرمي غزوة الخندق.

وهناك خريطة أخرى رتبها الأستاذ القاضي محمد سليمان المنصوربوري، ذكر فيها عدد الشهداء والقتلى والجرحى والأسرى وكذلك ذكر الأعداد الكاملة لكل فريق. (77)

فالمسألة ليست هي أن هذه الأعداد صحيحة أو غير صحيحة. وإنما هي لحظة التأمل في هذه الحقيقة أن هذه السرايا والغزوات حدثت في فترة ما بين السنة الواحدة والسنة التاسعة الهجرية،وكانت الخسائر البشرية للفريقين (من المسلمين وغير المسلمين) كلها لا تتجاوز عن 1018 شخص. وإذا قمنا بتوزيع هذا العدد القليل على ثماني سنوات، لخرجت النتيجة النهائية لكل سنة هجرية حدثت فيها تلك الاشتباكات والغزوات، وهي خسارة 375 شخص كل سنة، وهي كأنها لا حقيقة لها نظراً لعدد السنين الثمانية وهذه الخسائر البشرية هي لتلك الغزوات التي لم يبادر فيها النبي ﷺ بالقتال أو الحرب، ولكن تلك الحروب كانت قد فرضت على المسلمين يعني أنها كانت حروبا دفاعية محضة.حتى هدأت الأمور لصالح الدعوة إلى الإسلام في السنة الثامنة للهجرة، والدعوة كانت مستمرة في طريقها نحو الأمام بصرف النظر عن تلك الاشتباكات والغزوات، وانتهت المرحلة الأولى للدعوة بنجاح باهر، حين دخل الناس في دين الله أفواجا، فعدد المسلمين الذين كانوا قد شاركوا في أول معركة (بدر الكبرى) كان لا يتجاوز عن 313، إلا حين خرج النبي ﷺ إلى تبوك كانت راية الإسلام تترفرف على رؤوس ثلاثة آلاف من المجاهدين في سبيل الله. ومثل هذا العدد للجيش الإسلامي لم يكن له عهد في تاريخ شبه الجزيرة العربية.

وهل يمكن تقديم أي مثال من أي بقعة من الأرض لما أنجز النبي ﷺ بدعوته الإسلامية بدون خسائر أو بخسائر رمزية. فلم يكن هدف النبي ﷺ من دعوته احتلال أراضي الغير أو الجلوس على عرش قيصر وكسرى، وإنما كان هدفه الأسمي أن يخلق أمة جديدة وهي –كما يشهد القرآن الكريم – خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. فكل شيء قد ذكر في هذه الجمل القصيرة الثلاث وهي:

1. الإيمان بالله تعالى
2. والأمر بالمعروف
3. والنهي عن المنكر

فقبل بعثة النبي ﷺ كان هؤلاء المسلمون مثل الوحوش الجائعة، لا يعرفون سوى النهب والسلب، وكان الفساد قد سرى في البر والبحر، فعالج النبي ﷺ أمراضهم الاجتماعية بهذه الكلمات الثلاث، فأرى أن في هذه الكلمات معجزة تخليق أمة جديدة لقيادة عالم جديد، فهذه الأمة هي أمة عالمية برسالتها العالمية، فهي إذا كانت في صحبة أحبائها لكانت ناعمة مثل نعومة الحرير الأملس، ولكنها إذا كانت في الحرب ضد الباطل لكانت شديدة مثل الحديد والصلب. والإيمان بالله سبحانه وتعالى يتطلب ألا تخاف هذه الأمة حتى الموت، وتتوكل على الله إيمانا بأن النصر والهزيمة في يد الله سبحانه وتعالى. وهي تحاسب جميع أعمالها بهذا المقياس الرباني وهذا هو سر نجاحها أنها لا تبحث وراء أي عمل من أعمالها سوى مرضاة الله تعالى ورسوله وإنها تؤمن بأنها خلقت من أجل الخير و للخير فحسب، وليس سر خلودها هي الكسروانية أو القيصرية الظالمة، فهي تقف ضد كل طاغوت إيمانا بتعاليم النبي (النهي عن المنكر) فحاربت وستتحارب من أجلها حتى تضع الحروب أوزارها، وينتهي كل نوع من أنواع الشر والفساد والفتن إن شاء الله.

ويقول محمد حميد الله على الصفحة الثانية من كتابه بالأوردية (ميادين الحرب في العهد النبوي) إن الحروب التي دارت في العهد النبوي لها ميزة تميزها عن غيرها من الحروب، فالمسلمون واجهوا عددا أضعافا مضعفة في كثير منها إلا أن النصر كان حليفا للمسلمين دائما، وهؤلاء المسلمون الذين كانوا يعيشون في بعض الأحياء من المدينة المنورة، اتسعت بنسبة أربع وسبعين مربع ميل يوميا من حيث اتساع رقعة سيطرتهم، وعند وفاة الرسول ﷺ كانت رقعة تلك المساحة تحيط بأكثر من مليون ميل مربع من الأراضي يعني أنهم فتحوا مثل الهند من حيث المساحة، التي كان يعيش فيها ملايين من السكان. وفي تلك الحروب لم يقتل إلا عدد مائة وخمسون من الأعداء. بينما كان يستشهد كل شهر واحد من شهداء المسلمين الذين استشهدوا خلال فترة عشرة سنوات من العهد النبوي كله، فبدون أدنى تردد يقال إن المسلمين اعتزوا بحقن دماء الناس في تلك الحروب، وهذا الاعتزاز بحقن الدماء لا نظير له في تاريخ الحروب في العالم. (78)

11. وجه آخر للصورة:

في الواقع ليس هناك مجال للمقارنة، لأن المقارنة أو المقابلة تحتاج إلى قدر مشترك حتى ولو كان نسبيا، وهنا النسبة مفقودة تماماً، ولكننا نذكر هنا للعبرة بعض الأعداد للقتلى من الشعوب والدول المتحاربة في العالم التي هي تزعم أنها جالسة على أريكة سدرة المنتهي للثقافة والحضارة البشرية. في بداية الحرب العالمية الثانية كان يجب إخراج الجيوش الفرنسية من (دنمارك) فكان لا بد أن يتم إنقاذ القوة البشرية أولاً، ثم الأسلحة والمعدات الحربية الأخرى، فقال تشارتشيل وهو يلقي كلمته في البرلمان: (يمكن أن نصنع المعدات الحربية مرة أخرى، ولكن لا يمكن أن نصنع الرجال في المصانع) إلا أن الدول الأوربية الغربية في حروبها الأهلية وخاصة في الحروب ضد الشعوب الآسيوية والإفريقية قامت بإراقة الدماء البشرية كالماء، بل الدم الإنسانى

كان أرخص من الماء عندهم. كأن هؤلاء الناس من آسيا وأفريقيا لم يكونوا من بني الإنسان الذي كان يجب أن تحترمه أوربا.

إننا قد عرضنا تلك الحروب التي حدثت في العهد النبوي، والتي شارك فيها المسلمون من غير رغبة أو إرادة والتي كانت حروب دفاعية بحتة، لأنها كانت قد فرضت على المسلمين، وكان قد وصل عدد القتلى فيها إلى ثلاث آلاف على الأكثر وذلك طيلة ثماني سنوات من العهد النبوي. والآن نعرض بعض الصور للحروب في العالم، وسببها أيضا كانت هي الدول الأوربية نفسها.

في حين أن تلك الحروب التي دامت لمدة ثلاثين سنة من 1618م حتى 1648م، التي شاركت فيها ألمانيا وفرنسا والنمسا، وسويدن وغيرها، قد قتل فيها: 12000000 شخص من ألمانيا وحدها. (79)

12. عام الوفود:

وفي سنة التاسعة للهجرة جاءت وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة العربية، ولذلك سمي ذلك العام عام الوفود، ونزلت فيه الآية الكريمة: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). (سورة الفتح أو النصر)

13. حجة الوداع:

وفي السنة العاشرة للهجرة، خرج النبي ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة. واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي، ويقال: سباع بن عرفطة الغفاري. وخرج في حوالي مائة ألف من المسلمين إلى بيت الله الحرام، وأثناء وقوفه في عرفات قام بإلقاء خطبته المشهورة الخالدة التي تعتبر دستور الإسلام، فقد تناول فيها مبادئ الدين الإسلامي الجوهرية، ودعا إلى المساواة الحقيقية بين بني البشر، فقال رسول الله: أيها الناس! اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي

هذا، بهذا الموقف أبدا، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا... أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم من آدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وكذلك اكتملت أركان الشريعة الإسلامية بنزول الآية الكريمة من القرآن وقتئذ: (اليوم أَكملت لكم دينكم، وأَتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا) (سورة المائدة). (80)

14. وفاة النبي ﷺ:

وبعد أن عاد النبي ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة، لم تمر مدة ثلاثة شهور حتى مرض بالحمى، وحين علم الأنصار بشدة مرض النبي ﷺ، أحاطوا بالمسجد، فخرج الرسول ﷺ وجلس على المنبر، وقال بعد الحمد لله والثناء عليه: أيها الناس: بلغني أنكم تخافون موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله فأخلد فيكم! ألا إني لاحق بربي وأنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.) وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يجعل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم... وأوصيكم بالأنصار خيرا! فإنهم تبوءوا لدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟... إلى أن قال: ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي، إلا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده علي غدا فليكف لسانه إلا فيما ينبغي.

ثم اشتد مرض النبي بالحمى حتى لحق بالرفيق الأعلى، وذلك يوم الاثنين الموافق 12 ربيع الأول من السنة الحادية عشر للهجرة، وكان عمره ﷺ ثلاث وستين سنة وأربع أيام عند الوفاة. "اِنا لله واِنا اِليه راجعون"

وبتلك انتهت حياة الرسول ﷺ المليئة بالكفاح والنضال في سبيل عقيدة الإسلام ورسالته، فحياته ﷺ كان جهادا في سبيل الدين الذي جاء به للناس كافة، والجهاد هنا في معنى فكر وعقيدة ورسالة، عاش بها، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، ولا ريب أن نجاح الرسول ﷺ في دعوته إلى الإسلام يرجع قبل كل شيء إلى الإيمان الشديد بالكرامة البشرية، فدينه ﷺ كان ولا يزال تكريما للإنسانية جمعاء. وهو النجاح الذي لم يظهر أثره في عصره فحسب، وإنما في العصور التي تلته، وسيبقى إلى يوم الدين – إن شاء الله –

الفصل الثالث

معجزة النبي ﷺ الكبرى القرآن الكريم

ومنهجه الوجداني

تمهيد:

لعل أول منهج وضع للبحث العلمي وطرق الاستدلال فيه، والاستنباط هو منهج أرسطو الذي سماه (المنطق)، وهو يتحدث فيه عن الكليات الخمس المعروفة:الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام، ومنها تتألف الحدود والتعاريف، وقد لعبت دورا كبيرا في جميع العلوم عند العرب، وإن أصبح العصر الحديث لا يعني بها، لأنها كثيرا ما تكون مضللة، وخير منها التقسيم الذي يقوم على تحليل ما يراد تعريفه إلى عناصره وجزئياته وأفراده وأصنافه، والأهم في منطق أرسطو هو اهتداؤه في الاستدلال إلى أنه يتألف من قضايا، فينبغي أن ندرس أشكالها وضروب تركيبها من موجبة كلية وموجبة جزئية، وسالبة كلية وسالبة جزئية. ومن هذه القضايا تتكون مقدمات القياس بحيث إذا كانت صادقة كان صادقا، وإن كانت فاسدة فسد بفسادها.

واهتم العرب بمنطق أرسطو منذ ابن المقفع، فأخذوا يترجمونه أولا، ثم مضوا يشرحونه ويلخصونه في مصنفات كثيرة، واحتكموا إلى هذا المنطق أو استلهموه في وضع علومهم، ونحن نجده ماثلا في علم الفقه وأصوله، إذ يتحدث الفقهاء عن الحدود والتعاريف والكلي والجزئي والعام والخاص والقياس، وبالمثل نجده بارزا في علوم اللغة والنحو، إذ نرى النحاة منذ الخليل (بن أحمد الفراهيدي) يتوسعون في الكلام عن القياس، كما يتوسعون في بيان العلل الأربع: المادية والصورية والفاعلية والغائية. ولكن النحاة والفقهاء وغيرهم من علماء العرب اهتدوا مبتكرين إلى أن القياس الأرسطي قياس رياضي، فهو يبدأ من العام الكلي ويطلبه في المفردات الجزئية. وقد تطرد صحة ذلك في العلوم الرياضية، أما في العلوم الطبيعية والإنسانية، فلا بد من الانتقال العكسي أي من الأفراد والمفردات إلى الكلي العام حتى يكون القياس سديدا. وكان لذلك أثر بعيد في العلوم العربية، إذ عد الاستقراء والملاحظة أصلين أساسيين فيها، وضمت إليها في العلوم الطبيعية التجربة، وبذلك أمكن

للعلوم العربية أن تنهض نهضتها العظيمة في كل مجال، ونهضة أعدت لازدهار علوم الطب والصيدلة بفضل التجارب الكثيرة التي كان يجريها الصيادلة والأطباء، وكذلك في الكيمياء والبصريات وعلم الفلك ومراصده الضخمة.

ويرى شوقي ضيف ربما كان أهم بحث أدبي عند العرب يتضح فيه تأثير المنطق الأرسطي والتأثر بمنهجه كتاب (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب الذي نشر خطأ باسم (نقد النثر) ونسب إلى قدامة بن جعفر، ونرى مؤلفه يعقد فيه فضلا للقياس يتحدث فيه عن الحد والوصف والمقولات واستخدام هذه الأنواع في العربية، وهو في كل ذلك متأثر بالمنطق الأرسطي مع ما أضاف إليه من بحوث المتكلمين والفقهاء ومواضعاتهم ومقالات الفلاسفة الإسلاميين وأفكارهم.

ووضعت للعلوم الدينية مناهجها التي تعنى بها مباحث علم الأصول، والتي تتناول الكتاب والسنة والإجماع والقياس. وبالمثل وضعت أصول للنحو واللغة على نحو ما يتضح ذلك في كتاب (الخصائص) لابن جني.(81)

وعلى هذا النحو كان العرب يستضيئون بمنطق أرسطو في بحوثهم الأدبية مع محاولات خفية للعناية بالجزئيات والمفردات واكتمال الاستقراء وصحة الاستنباط، واتسعوا في الملاحظات سعة شديدة، وتقابل في البحوث الأدبية التجارب في البحوث العلمية عندهم، وقد ظلوا مع ذلك يحتكمون إلى المنطق الأرسطي، مكثرين من القواعد والأقيسة. وهم في كل هذا يختلفون عن علماء العصور الوسطى الغربيين في تعبدهم لمنطق أرسطو، فقد عكسوا بواسطة الاستقراء: الانتقال من العام إلى الخاص، إذ جعلوه الانتقال من الخاص الجزئي إلى العام الكلي، ووقفوا فاعلية منطق أرسطو وأقيسته، إذ أدخلوا عليه التجربة والملاحظة في إثبات الحقيقة بدون حاجة إلى حدود ومقولات وأقيسة.(82)

أ. المنطق الأرسطي وتأثيره في علم الكلام

إن الإنسان عبارة عن نفس وعقل، وإرادة وتصور. ويتبع الاعتقاد، وبصفة خاصة، عالم المشاعر. وهناك الكثير من الاعتقادات العقلية بجانب الاعتقادات الشعورية. لكن الاعتقادات العقلية تحتوى في مبدئها، على دفعة شعورية، تقويها وتزيد من فعاليتها. وكما قيل إن كلا من الانفعال والاعتقاد يعتبر شيئا واحدا، فإن الشعور يمهد للاعتقاد، وهو يمده بالطاقة التي تتيح له أن يظل ثابتا وحيا. ومن جهة أخرى، فإن الاعتقاد شيء، والاستدلال عليه شيء آخر: إننا نعتقد فيما يعتقده الآباء والمجتمع، وتشتهر العادة بأنها عقل، والواقع أنه إذا كان كل اعتقاد في حاجة إلى استدلال لكان عدد المعتقدين أقل مما هو عليه، ولكانت مهمة الرسل والمبشرين أكثر صعوبة. ومع ذلك فإن الاعتقاد يستخدم العقل للتفسير، والدفاع ضد الخصوم. ويوجد إلى جانب المعتقد الأعمى الخالص، العقيدة المتبصرة التي تبحث وتستدل على الأفكار العقلية، وقد كان من البديهي لدى المتكلمين المسلمين أن يكون العقل من أفضل أسلحة علم الكلام، التي استخدمها، في الأقل، ليحافظ بها على سلطته. (83)

ويتجه الدين الإسلامي، مثل سائر الأديان، قبل كل شيء، فإنه مليء بالآيات التي تبلغ فيها لغة القلب أوج البلاغة والقدرة على الإقناع، تلك اللغة التي أدهشت كبار الخطباء والشعراء العرب بروعتها البيانية وسرها المعجز. وقد أدى هذا تقريبا إلى أن يتهم الرسول ﷺ بالسحر والتنجيم، أو بامتلاك قوى أخرى خفية (خرقا للعادة)، ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن القرآن كذلك يدعو الناس على التفكير والاعتبار في ظواهر الطبيعة، وهو يقدم لهم أحيانا نماذج من البرهنة على وجود الله تعالى، وقدرته. لكن هذه البرهنة تعتبر بالأحرى خطابية، لأنها لا تستخدم الوسائل الفنية المعروفة في المنطق، وفضلا عن ذلك يشتمل القرآن الكريم على أساس

مذهب كلامي مكتمل للإسلام، فهو يصف الله تعالى، بكل خصائص القدرة والعظمة، فهو تعالى، خالق الكائنات كلها، والسلطان المطلق في السماوات والأرض، لا وسيط بينه وبين المخلوقات. هو الأول والآخر والظاهر والباطن. إنه الكائن الخالد والحقيقة الأزلية.

فتكونت العقيدة الإسلامية خلال ما يقرب من ثلاثة قرون، وأثرت في تكوينها عوامل مختلفة، داخلية وخارجية، كما شاركت مدارس متنوعة في هذا العمل العظيم. فلم يكد يمضي ثلاثون عاما فقط على وفاة الرسول ﷺ، حتى أدت ضروب النزاع السياسى إلى اختلافات مذهبية. لقد كان كل من الخوارج والمرجئة، في البداية، عبارة عن مجموعات سياسية، لكنها سرعان ما تحولت إلى طوائف دينية. وقد سيطر الإسلام، إثر فتحه العظيم، على مساحات شاسعة، وحل محل معتقدات قديمة، وديانات عتيقة، واكتسح تماما آثار الفكر الديني القديم، فاعتنقه كثير من اليهود والمسيحيين، وانتشر المزدكيون ومتبعو المانوية والسبئية بين المسلمين. وقد حملت هذه العناصر الأجنبية أفكارها ومذاهبها التي أثارت العالم الإسلامي. من بين هذه الأفكار، يمكن الإشارة، في المقام الأول، إلى تلك المشكلة التي تتعلق بحرية الإرادة، والقضاء والقدر، والتي أدت إلى ظهور فرقتين كلاميتين معروفتين جداً هما: القدرية والجبرية.

وقد استمرت القدرية، بصفة خاصة، حتى بداية مدرسة المعتزلة الكبرى، التي كان لها، لأول مرة، شرف وضع الحجر الأساسي لعلم الكلام، والدفاع عن الإسلام بكل حماسة. وقد أقامت هذه المدرسة، بفضل ما ظهر فيها من مواهب وعبقريات عظيمة، ومذاهب عميقة الأصالة في علم الكلام الإسلامي. ويعتبر دفاع المعتزلة ضد الزنادقة والملحدين والمشركين من المزدكية والمانوية والسبئية دفاعا شديد

الحيوية، لا نكاد نعرف له مثيلا قط في تاريخ الفرق الدينية. ونحن هنا لا نهتم بمذهب المعتزلة، وإنما نريد أن نقول كلمة عن منهجهم الدفاعي.

ربما لا يعرف في أي مكان مسرح مثير للإعجاب، وثرى للغاية بدقته ومواهبه الجدلية، مثل ذلك الذي لمع فيه متكلمو المسلمين في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي (الثاني والثالث والرابع الهجري) إن هذا المسرح يقوم شاهدا على فترة متطورة جدا من الحرية، ومادة وفيرة جدا من علوم الجدل.

وبالنسبة إلى الجدل في مجال العقائد فمدرسة المعتزلة تقدم مجادلين من الطراز الأول، أمثال: واصل بن عطاء (130هـ/ 747م) والنظام (231هـ/ 845م) والجاحظ (256هـ/ 869م) أولئك الذين برهنوا على موهبة بارزة في الجدل والمناظرة واستطاعوا بها الانتصار على كثير من خصومهم. حتى أطلق على المعتزلة لقب (أهل الجدل) ومع ذلك، فإن الجدل المعتزلي، في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (الثاني والثالث الهجريين) يعتمد أساساً على البلاغة وعلوم الأدب. ولكنه كان جدلا بدون منهج أو نظام، الجدل الذي حاول الإقناع والانتصار بأية وسيلة.

ومع ما نعرفه قليل جداً عن أعمال المعتزلة الأوائل، فإنه من الملاحظ أن (الطرق الفنية) كانت مفقودة من مناقشاتهم، فلم يوجد (تقسيم) ولا (تصنيف) ولا (تعريف) لكثير من المسائل التي تعتمد عليها مسائل أخرى. ولم يكن لديهم إعداد (للأدلة) ولا توضيح (للمقدمات) التي ينبني عليها (القياس) لقد اكتفوا بذلك الجدل الخطابي الذي ترجع قوته كلها إلى تعبيرات مختارة بعناية، وتفسير بعض الأحداث الطبيعية. وهكذا استمر المعتزلة الأوائل في اتباع المنهج القرآني في البرهنة.

ولمعرفة فكرة محددة عن المعتزلة، يمكن أن نرجع إلى كتابات الجاحظ الجدلية، التي تعتبر ذات دلالة في هذا الصدد، حيث نرى فيها (ملاحظات) دقيقة وعميقة جداً، لكنها خالية من المنهج المحدد. فالجاحظ يبرهن على وجود الله وقدرته

بواسطة عجائب السماء والأرض. وحين يتحدث بصورة منطقية، فإن الأدلة التي يسوقها لا تكاد ترتقي إلى مرتبة البرهان. (84)

وعلى العموم، فإن انتصار المعتزلة يعتبر بالأحرى مذهبياً، وتمثل نظرياتهم في الذرة (الجوهر الفرد)، والأحوال، والكون والعدم جزءا مهما جدا من فلسفة علم الكلام .

ويعتبر القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) من وجهة نظر تاريخ العقيدة الإسلامية، نقطة تحول بين فترتين متميزتين، وهو معروف بظاهرتين على جانب كبير من الأهمية: الأولى أن مدرسة الأشاعرة تحول محل مدرسة المعتزلة، والثانية يستبدل الجدل الخطابي بنوع آخر من الجدل العلمي المنظم. ويؤدى ظهور الأشعري (ت:324هـ/935م) من الناحية النظرية والمنهجية، إلى تحول جذري في الدراسات الكلامية الإسلامية. فإن هذا المعلم الكبير يقيم مذهبا له منهج جدلي يحدث تأثيرا هائلا في كل من يليه. لقد طال الجدال طويلا في (مذهبه) ولكن أحدا لم يتعرض لمنهجه على وجه التقريب. لقد تميز الأشعري بموهبة جدلية فائقة، مثل المعتزلة الأوائل، ثم أضاف إليها (طريقة فنية) لم يعرفها هؤلاء. وقد تلقى فن النقاش من الفلاسفة المعاصرين له، وقرأه في الكتابات الأرسطية وبخاصة (الأورجانون) الذي كان قد ترجم بالفعل إلى اللغة العربية بأقلام ابن رشد وابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم في القديم وعبدالرحمن بدوي في العصر الحديث. والذي يعرف بالوسيلة أو الأداة في اللغة العربية. وقد استخدمت هذه اللفظة اليونانية كعنوان لمجموعة مؤلفات أرسطو بمعنى الوسيلة إلى التفكير وإلى الحكم على صحته أو فساده بالوسائل المنطقية التي حددها أرسطو في كتبه.(85)

والواقع أن المنهج الأرسطي يبدو أنه قد أثر تأثيرا بالغا في الأشعري، الذي أصبح القياس لديه هو الصيغة المألوفة في البرهنة، كما أكثر في وضع قواعد الجدل

ونصائح السفسطة. وما وصل إلينا في الجدل هو رسالته الصغيرة بعنوان (الإبانة) التي توضح لنا منهجه الجدلي بصورة كافية. فالأشعري يناقش في هذه الرسالة آراء خصومه من المعتزلة بالكثير من النظام والوضوح، وهو يعرضها أولا باختصار، ثم يعرج بعد ذلك إلى دحضها، ويستعرض كل وجه من وجوه المسألة الواحدة، مقدما حول كل نقطة البراهين المضادة، وبنت بالاختيار بين الإيجاب والنفي. ومما تجدر الإشارة إليه، أن الجدل عند الأشعري يتشابه مع جدل المدرسيين اللاتينيين إلى حد كبير، حيث نرى فيه الأشعري يحاول عن طريق (التقسيم) و(التصنيف) أن يقيم شكلا من القياس، وينادي بالسلطة الدينية. وقد أتاحت له هذه الصيغة: (فإن قال ... قلت) أن يستقصي كل الفروض الممكنة حول المشكلة التي يتناولها، وهذه الصيغة تشبه في عمقها بمنهج المدرسيين الأوربيين. وفضلاً عن ذلك أنه يتبني طريقة كانت شائعة لدى الجدليين اللاتينيين و(تعدد الأدلة) فمثلا عندما يستدل على إمكانية رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، يسوق حوالي عشرة أدلة، وفي النهاية، يدحض الأشعري، الجدلي الحاذق، خصومه بأدلتهم نفسها، وهو ما يعرف عند العرب: (الإلزام) ثم إلى جانب هذا التكنيك يبرع الأشعري في تحليل الألفاظ، ويتبع المنهج الذي طبقه أرسطو في دراساته عن المترادفات والجناس. (86)

ب. المنطق الأرسطي وتأثيره في العلوم البلاغية

ازدهرت الحركة العلمية والأدبية في بيئة الأندلس ازدهارا عظيما كما ازدهرت في الشرق العربي واتسع نطاقها فشملت فيما شملته النواحي العقلية والكلامية، لقد كان هذا نتيجة مباشرة لامتزاج المسلمين بسكان الأندلس ومصاهرتهم ثم دخول كثير من غير العرب الإسلام، فظهرت صلة أخرى غير الاجتماع في بقعة واحدة، وصلة الدين، وامتزجت كل هذه الأجناس امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم، فكانت لهم نزعة عقلية جديدة، ونمت مواهبهم الفطرية، وترتب على ذلك

أن اهتموا بنقل العلوم ونشرها، ووصلوا إلى البلاد في طلبها، ورحل إليهم كثير من العلماء، فأخذوا عنهم، كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس، ولم يكن للعرب إذ ذاك من يزاحمهم، لأن معالم الحضارة كانت قد خفيت، والعالم كان يتطلع إلى من ينقذه من براثن الموت، ويفيض عليه من نور العلم والعرفان، ولقد عرف العرب أن الأمة لا تحيا إلا في ظلال العلم... لذا عملوا على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون، حتى في أسبانيا حيث أدخلوا فيها ما كان منتشرا من فنون الحضارة ومظاهرها في بغداد.

وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون كما ظهر أيضا في أنواع البلاغة من الشعر والنثر مما لم يكن عند سواهم، وذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية، فكان لهم أثر في كل شيء اطلعوا عليه، فألفوا ودونوا واخترعوا، وقد عنوا عناية فائقة بجمع الكتب في كل علم وفن، فقد كان في أسبانيا ستون مكتبة عامة، أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم أشهرها مكتبة (قرطبة) وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ألفها وترجمها العرب في الزراعة والفلك والرياضة وفي أصول الدين، وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة، كان ذلك كله مجموعا جمعا منظما في مكتبة (الحكم) المستنصر (366/350) واشتدت رغبة (الحكم) في اقتناء الكتب، فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين، وبلغت الكتب فيها مائة ألف مجلد، جمعها من أفريقيا وفارس وجميع البلدان. (87)

ثم أتت بعد ذلك حركة التفاعل بين الفكر الأندلسي وما ورد إليه من نتاج الفكر الإسلامي بالمشرق العربي الذي كان قد تأثر – إلى حد كبير – بالفلسفة اليونانية، وخضع للمنطق ومقائيسه حتى أصبحت تعبيرات الفقهاء مصبوغة بهذه

الصبغة، ووضعت في مؤلفاتهم قواعد الجدل والبرهان... حتى البلاغة العربية أثرت فيها البلاغة اليونانية. (8)

وإذا كان الأندلسيون قد حاكوا المشارقة في النواحي الثقافية والعلمية فقد كانوا كذلك يقيمون حياتهم الأدبية على تلك الأسس والقواعد التي وضعها المشارقة.

يقول (ابن خلدون): (أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين: (أدب الكاتب) لابن قتيبة، وكتاب (الكامل) للمبرد، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي البغدادي، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ. (89)

فإن بيئة الأندلس بما وعت من ألوان الثقافة وفنون المعرفة، ثم بيئة المغرب بما زحزحت من تقدم في الدراسات البلاغية والنقدية، كان لهما النصيب الأكبر في صقل العلوم البلاغية في تاريخ البيان العربي.

ومن فلاسفة الأندلس النابهين (ابن رشد) المتوفي عام 595هـ أشهر فلاسفة الإسلام، وأعظمهم تأثيرا في منطلقات التفكير الأوربي، والذي تصدى لشرح كتب المعلم اليوناني (أرسطو).

ولم يوجد من نقاد العرب – منذ عهد قدامة بن جعفر صاحب كتاب (نقد الشعر) من عنى عناية ملحوظة بكتاب (الشعر) لأرسطو، وظلت فكرة (أرسطو) عن (المحاكاة) وفكرته عن أصل الشعر، بعيدتين عن دراسة الشعر العربي على مدى بعيد، بالإضافة إلى أن نظرية (التراجيديا) التي عالجها أرسطو لم تظهر عند الفلاسفة إلا مؤخرا في شرح (ابن رشد) لكتاب الشعر...(90)

وعندما اتصل فكر (أرسطو) بالبيان العربي كان ذلك من خلال عقلية (قدامة بن جعفر) التي لم تعن بالجانب الفني والوجداني قدر عنايتها بالجانب العقلي، وما يتصل به من التقسيم والتفريع.

وهذه الحقيقة التي دفعت بعض النقاد إلى القول: بأن كتاب قدامة (نقد الشعر) لم يؤثر تأثيرا كبيرا في النقد... وكل ما له من فضل هو وضع عدد من المصطلحات وتحديد بعض الظواهر.(91)

ثم جاء (حازم القرطاجني) فأفاد من البيئة الأندلسية والمغربية أجل فائدة.(92)

فإذا ما أردنا تحديد المصادر التي استقى منها (حازم) لقلنا إن أهمها ما خلف أرسطو في مبحثيه المعروفين في فن (الشعر) و(الخطابة).

والأفكار الإنسانية السليمة في مد وجزر، وتفاعل وتلاطم، يغذي كل منهما الآخر، يؤثر فيه ويتأثر به.

والكيان العلمي والفكري للأمة العربية لن يؤثر فيه ثبوت الإفادة من ثقافة ما من ألوان الثقافة الإنسانية، فإن الأمة العربية لم تعش وحدها على الأرض، وإنما عاشت معها أمم أخرى كانت لها حضارات وكانت لها ثقافات متشعبة في مصر والهند وفارس. ولقد كانت للعرب صلات قريبة أو بعيدة بكثير من هذه الأمم والأجيال.(93)

ولقد تأثر (حازم القرطاجني) بأعلام نابهين في البلاغة والنقد من العرب وغيرهم من أمثال (أرسطو) في كتابه (فن الشعر) وابن سينا في كتابه (الشفاء) وكذلك الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) وقدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) والآمدي في كتابه (الموازنة) و(أبو هلال العسكري) في كتابه (الصناعتين) وابن الأثير في كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وابن رشيق القيرواني في كتابه (العمدة) وغيرهم.

ولا شك أن عددا من المؤلفين في البلاغة والنقد قد اطلعوا على آثار الفكر اليوناني، وقرأوا كتب أرسطو، وفي مقدمتهم الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وابن وهب

صاحب كتاب (البرهان) وعبد القاهر الجرجاني وضياء الدين بن الأثير... ولكن هذا الاطلاع عليها أو على ترجماتها أو على النقول التي اقتبست منها لم يستطع أن يطغى على طابعهم العربي الأصيل، في تناول الفن الأدبي.

فكان تأثير الفكر اليوناني واضحا عند هؤلاء العلماء الذين درسوا أو نقلوا عن كتاب حازم القرطاجني (المنهاج) كالزركشي في (البرهان)... والسيوطي في كتاب (الاقتراح) والسبكي في كتاب (عروس الأفراح). (94)

1. قضية إعجاز القرآن الكريم

وبعد هذه الخلفيات التاريخية والحقائق العلمية يجب أن نلقي بعض الضوء على تلك الجهود الضخمة التي بذلت في بيان قضية الإعجاز، فقد تناول كثير من المفكرين والباحثين من القدأمي والمحدثين والمتخصصين في العلوم اللسانية من العرب وغيرهم هذا الموضوع في كتاباتهم كالروماني والواسطي والعسكري والجرجاني وغيرهم من المتقدمين، والإمام الرازي (ت:606هـ) الذي لخص كتابي (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) للجرجاني واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن، والأديب ابن أبي الإصبع (ت: 654هـ) فقد صنف كتاب (بدائع القرآن) أورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن، وابن القيم الجوزية (ت:751 هـ) في كتابه (كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان) وغيرهم من العلماء المتأخرين.(95)

وقضية الإعجاز يعني إظهار صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب وغيرهم من الأمم والشعوب في معجزته الخالدة – القرآن – وعجز الأجيال اللاحقة بعدهم، فدرس كل منهم معجزة النبي الأمي (صلى الله عليه وسلم) الكبرى، والقرآن، وباقية ما بقي الزمان، ومحفوظة من غوائل الحدثان، ومعجزة الإنس والجان.

إن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى، فكان لا يرى شيئا يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الحسية، حيث لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة والتفكير، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء، فلما اكتمل العقل البشري ونضجت خصائصه أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة، إلى كافة الأمم والشعوب، وكانت معجزتها معجزة فكرية للعقل البشري في أرقى تطورات نضجه ونموه، فبينما كان تأييد الله لرسله المرسلين السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار، ولا سبيل للعقل في معارضها: كمعجزة اليد والعصا لموسى، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى (عليهما السلام) كانت معجزة البشر الأمي محمد (صلى الله عليه وسلم) معجزة فكرية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد، ومعجزة القرآن الكريم بعلومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلة، فالعقل الإنساني لا يعجز عن معارضته، لأنه آية كونية لا قبل له بها، ولكن عجزه كقصوره الذاتي، فيكون هذا اعترافا منه بأنه وحي الله إلى رسوله، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه، وترتقي مواهبه. وهذا المعنى، هو ما أشار إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا) " رواه البخاري في صحيحه".

وهكذا كتب الله لمعجزة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) الخلود تأييدا لدينه الحق، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخي الزمن وتقدم العلم عن معارضتها، أما معجزات سائر الأنبياء (عليهم السلام) فقد انقضت بانقضاء حينها، وامتدت يد العبث بالتحريف والتبديل والحذف والزيادة إلى كتبهم وشرائعهم.

إن قضية الإعجاز التي كانت سببا رئيسيا لنشأة العلوم البلاغية و علم الكلام في الإسلام، الذي أصدق ما يقال فيه عند البعض: (إنه كلام في كلام، و ليس فيه وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القول بعضها فوق بعض).(96)

2. وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

تلك الوجوه التي ذكرها العلماء مثل القرطبي، ومذكورة في كتب كثيرة، مثل: (97)

وحسبما قال الآمدي في (أبكار الأفكار): ذهب أبو اسحاق إبراهيم بن سيار النظام من المعتزلة والمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة. ومعنى الصرفة عند النظام: هو أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقا للعادة. ومعنى الصرفة عند المرتضى: هو أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها الناس في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن– وهذا يدل على عجز العرب، فلا يقال فيمن سلب القدرة على شيء، إن الشيء أعجزه مادام في مقدوره أن يأتي به في وقت ما، وإنما المعجز حينئذ هو قدر الله، فلا يكون القرآن بذاته معجزا. وموضوع حديثنا هو اعجاز القرآن بذاته، وليس الإعجاز بالصرفة من الله.(98)

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني :(ومما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره في نفسه.(99)

والقول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. (الإسراء: 88) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم.

وقد ذكر العلماء أمثال القرطبي ما يربو على عشرة أوجه من وجوه الإعجاز فنذكر ما أهمها:

أ. ذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل . وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون لصور المعاني الحية في النسج المحكم، والبيان الرائع.

ب. وقال بعضهم: إن وجه إعجازه في تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد في كلام العرب من الفواصل والمقاطع.

ج. وقال آخرون: إن إعجازه في الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يطلع عليها إلا بالوحي أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدأ الخلق بما لا يمكن صدوره من أمي لم يتصل بأهل الكتاب.

د. وذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما يتضمنه من العلوم المختلفة، والحِكَمِ البليغة، وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور في هذا الفلك.

هـ. والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتضمنه من الألفاظ والمعاني: فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه من حيث تماسك الكلمة وتكوين الجمل وتماسك الآية. وهو معجز في بيانه ونظمه وهو معجز بعلومه ومعارفه، التي أثبت العلم الحديث كثيرا من حقائقها المجهولة. وهو معجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان، وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه.

و. والقرآن أولا وآخرا- هو الذي صير العرب رعاة الشاة والغنم سادة الشعوب وقادة الأمم، وهذا وحده إعجاز. قال الخطابي في كتابه (بيان إعجاز القرآن): (إن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني، من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته وبيان لمنهاج عبادته في تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم،

والأمر بمعروف والنهي عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وجزر عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيئا منه، لا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منه، منبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان –جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وأنباء عن وجوب ما أمر به ون عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله (إعجاز القرآن المطبوع في ثلاثة رسائل من مطبعة المعارف وكذلك الزركشي).(100)

3. القدر المعجز من القرآن الكريم

أ. رأيُ المعتزلة يقول إن القرآن كله معجز وليس بعضه. أو بكل سورة برأسها.

ب. ورأيٌ آخر يقول إن القرآن معجز سواء كان قليلا أو كثيرا منه دون تقييد بالسورة لقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله). (سورة الطور: 34)

ج. ورأيٌ آخر يقول : إن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات.

د. ولقد وقع التحدي بالقرآن كله كما في قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وبعشر سور (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله) (هود) ثم بسورة واحدة (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (البقرة). فيتبين مما ذكرناه أن قدر المعجز من القرآن هو ما يقدر

بأقصر سورة منه. ويتبين من رأي المعتزلة أن القرآن كله معجز وليس بعضه، وقال غيرهم أن المعجز هو كل ما يصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة. وفي الحقيقة ليس إعجازه محصورا في قدر معين. لأننا لا نستطيع أن نحدد قدرا معينا من الألحان والأنغام وتأثيرها البالغ المحدد في النفوس، حيث نرى إعجاز تأثيره في أصوات حروفه ووقع كلماته. فالقرآن كله معجز لأنه كلام الله، وكلام رب العالمين الذي لا مثيل له ولا بديل لا يقاس على كلام الآدمي لتحديد القدر المعجز من ناحية إعجاز تأثيره البالغ في النفوس وكفي. والقرآن معجز من ناحية أسلوبه، وناحية علومه ومعارفه، ومن ناحية التأثير الذي أحدثه في العالم وغير به أو من هذه النواحي مجتمعة ونجد إعجازه واضحا جليا.

4. إعجاز القرآن الكريم من حيث اللغة

قبل أن نتناول "إعجاز القرآن الكريم من حيث منهجه الوجداني" نرى من الضروري أن ندرس بعض جوانب إعجازه من حيث اللغة والأسلوب، ومن حيث النظريات العلمية، لأنها ذات صلة عميقة بالموضوع، فقد نشأت العربية السامية، ومرت بمختلف مراحل تطوراتها، حتى اكتملت خصائصها، وتهذبت في المجامع العربية وأسواقها، فمارس أهلها فنونها التي ازدهرت وترعرعت، واستظهروا شعرها ونثرها وحكمها البالغة وأمثالها السائرة وطاوعهم البيان في أساليبه الساحرة المتمثلة في الحقيقة والمجاز، والإيجاز والإطناب، والرواية والمقالة، وحين ارتفع شأنها، وبلغت بلاغتها كل مبلغ، وقفت على عتبة لغة القرآن في إعجازه اللغوي، تنحنى أمام أسلوبه المعجز إجلالا لها، وإعجابا بها، واعترف أعلامها وأساتذتها من فحول اللسان العربي بسمو أسلوبه البياني، إدراكا لأسراره ولا عجب، فتلك إذعانا لعظمتها، ووقف القرآن من أهالي هذه اللغة موقف التحدي في صور شتى، فعجز بيانهم ولسانهم وتحطمت أقلامهم أمام هذا التحدي.

وحيثما قلب الإنسان نظره في القرآن وجد أسرارا من الإعجاز اللغوى في نظامه الصوتى البديع بجرس حروفه. حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها، وغناتها، وفواصلها، ومقاطعها، فلا تشبع أذنه من السماع، فتطلب منه المزيد. وفي ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه، فلا يقال : إنه زائد أو هنا ناقص يحتاج إلى لفظ. وفي أسلوبه الخطابي وضروبه التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم حسب طاقات عقولهم وقدرات مواهبهم من العامة والخاصة. وفي إقناع العقل وإمتاع العاطفة، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيرا ووجدانا في تكافؤ واتزان، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير. وهكذا يجد أمامه حجة القرآن ثابتة في التحدي والإعجاز. (101)

إن القرآن قد عجز العرب عن معارضته، وهو لم يخرج عن أساليب كلامهم ألفاظا وحروفا، وتركيبا وأسلوبا، ولكنه في أشتات حروفه وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وجرس كلماته، ومراعاة مقتضيات الأحوال في ألوان البيان وفي الجمل الاسمية والفعلية، وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف، وفي التعريف والتنكير، وفي التقديم والتأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز، وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتقييد، وهلم جرا. فالقرآن فيما ذكرناه وأمثلته كثيرة قد بلغ ذروة الكمال التي تعجز أمامها القدرات اللغوية لدى كل بشر.

ويحسن بنا أن نذكر هنا قول القاضي أبى بكر الباقلاني الذي تتلخص منهجه في الإعجاز في ثلاث خطوات:

1. إثبات صحة ما بين أيدينا من نص القرآن، وأنه هو حقا كتاب الله المنزل على نبيه. وهو في منهجه هذا يتفق مع ابن سلام الجمحي الذي دعا إلى تحقيق النص وسلامة نسبته.
2. إثبات عجز العرب عن الإتيان بمثله على رغم تحديه مرارا.

3. استنباط النتيجة من المقدمتين السابقتين.

4. وخروج القرآن عن سائر كلام العرب وهو يقول:

"والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، مباين لهذه الطرق، فليس من باب السجع، وليس من قبيل الشعر، وتبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة. وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه..".

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة على هذا الطول . وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف، والتكلف والتعسف، وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى الله . الزمر)

(ولو كان من غير عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . 82 النساء) فأخبر أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.

وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها . من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يقرب في وصف الإبل والخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بإمرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف و الوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر) (مأخوذ من فصل في جملة وجوه إعجاز القرآن).(102)

5. إعجاز القرآن الكريم من حيث النظريات العلمية

قد أخطأ كثير من الناس الذين يحرصون دائما على أن يتضمن القرآن كل نظرية علمية، فكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملا في آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية.

ويرجع الخطأ في هذا أن العلوم ونظرياتها تتجدد دائما مع الزمن تبعا لسنة التقدم، فلا تزال في نقص دائم يكتنفه الغموض أحيانا، والخطأ أحيانا أخرى، ثم

تستمر على هذا النحو حتى تقترب من الصواب وتصل إلى درجة اليقين وكل نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين، وتخضع لتجربة، حتى يثبت يقينها، أو يتضح زيفها وخطأها، ولهذا كانت عرضة للتبديل. ولذلك نرى أن كثيرا من القواعد العلمية التي ظن الناس أنها نهاية المطاف وأصبحت من المسلمات تنزع بعد ثبوت، وتتقوض بعد رسوخ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها من جديد.

والذين يحاولون أن يفسروا القرآن حسبما يطابق ما ظهر من مسائل العلم، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر في عالم العلم، يسيئون إلى القرآن نفسه حيث أنهم يظنون أنهم يحسنون صنعا للتظاهر بعبقريتهم، وهؤلاء ينسون أن هذه المسائل العلمية التي تخضع دائما لسنة التجديد تتبدل، وقد تتقوض من أساسها وتبطل، فإذا فسرنا القرآن بها نجد أنفسنا في تفسيره عرضة للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم، أو يقين يبطل التخمين.

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية، يخاطب الضمير والوجدان، فيحيي فيه عوامل النمو والارتقاء وبواعث الخير والفضيلة.

وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل، وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما في حثه على التفكير، فهو يحث الإنسان على النظر في الكون وتدبره، ولا يشل حركة العقل في تفكيره أو يحول دون تزود من العلوم والمعارف ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن.

فأي مسألة من مسائل العلم، أو قاعدة من قواعده، يثبت رسوخها، ويتبين يقينها، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا وحده إعجاز.

والقرآن الكريم يعتبر التفكير السديد والنظر الصائب في الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله.

إن القرآن يحث المسلم على التفكير في مخلوقات الله في السماوات والأرض: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. (آل عمران: 190-191).

و يحث القرآن الإنسان على التفكير في نفسه، و في الأرض التي يعمرها، و في الطبيعة التي تحيط به باعتباره جزءا من عناصرها (أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق و أجل مسمي) (الروم:8) (و في الأرض آيات للموقنين، و في أنفسكم أفلا تبصرون؟) (الذاريات:20-21) (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ و إلى السماء كيف رفعت؟ و إلى الجبال كيف نصبت؟ و إلى الأرض كيف سطحت؟ (الغاشية: 17-20).

و كذلك يثير فيه الحس العلمي للتفكير و الفهم و التعقل. كما نرى في هذه الآيات :

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون) (البقرة: 219) (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلكم تتفكرون) (الحشر:21) (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (يونس: 24) (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الرعد: 3) (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) (الأنعام: 97) (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) (الأنعام: 65) (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) (الأنعام:98).

ويرفع القرآن درجات المسلم بفضيلة العلم : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آوتوا العلم درجات) (المجادلة:11).

ولا يسوي القرآن بين العالم والجاهل: (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون؟) (الزمر:9) ويأمر المسلم أن يطلب من ربه نعمة العلم: (و قل ربى زدنى علما) (طه: 114) فالقرآن يحث المسلمين على التفكير، ويفتح لهم أبواب المعرفة ويدعوهم إلى ولوجها، والتقدم فيها، وقبول كل جديد راسخ من العلوم: الفلك والنبات و طبقات الأرض والحيوان، ويجعل ذلك من بواعث خشيته: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء أخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشي الله من عباده العلماء) (فاطر: 27-28).

تلك الإشارات العلمية ونظائرها في القرآن جاءت في سياق الهداية الإلهية، وللعقل البشري أن يبحث فيها ويتدبر، يقول: الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: (يسألونك عن الأهلة، قل مواقيت للناس والحج) (البقرة: 189): (واتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظرى، وحدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وحياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر، وكيف تتم؟ و داخلة في مدلول السؤال ...إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجئى ليكون كتاب علم فلكي، أو كيماوى أو طبي...كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم.

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية، والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشيء تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية، التي تقوم بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق

المجال لها لتعمل- بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان، وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال...

ولذلك نرى الأستاذ سيد قطب يتعجب وهو يقول: إنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه مالم يقصد إليه، وان يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا و يكبروه...

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني- أيا كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائية، ولا قاطعة، ومقيدة بحدود تجاربه، وظروف هذه التجارب وأدواتها، فمن الخطأ المنهجى - بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية.

وكل هذه المحاولات لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة - تحتوى على خطأ منهجى أساسى لا يليق بجلال القرآن الكريم.

1. وهو يتمثل في الهزيمة النفسية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة.
2. ويتمثل في سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وأنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق- بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية-

مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادفه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه من خلافته، نوامسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل، لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

3. ويتمثل في التأويل المستمر – مع التمهل والتكلف- لنصوص القرآن كما نحملها، ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد. (مقتبس من كتاب سيد قطب في ظلال القرآن بتصرف).

6. إعجاز القرآن الكريم من حيث منهجه الوجداني

قد تناول هذا الموضوع بعض الباحثين في العصر الحديث مثل الأستاذ سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) بعنوان (المنطق الوجداني) ليعالج به قضايا الإيمان بالغيب مثل: عقيدة التوحيد أي الإيمان بإله واحد، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن الإسلام واجه ما يواجهه كل فكر جديد أو عقيدة غير مألوفة من الإنكار، وجادل عن دعوته من أراد الجدال فيها، ولما كان القرآن كتاب هذه الدعوة فقد تضمن كثيرا من هذا النوع من الجدل، فكيف جادلهم وأي منهج سلك؟ وأي الأدلة والبراهين اختارها؟ فحاول أن يرد على هذه الأسئلة قائلا: إن القرآن الكريم تناول كثيرا من الأدلة والبراهين التي جادل بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها الجميع سواء كان من الخواص أو عامة الناس، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب رائع واضح الدلالة، سليم التركيب لا يحتاج إلى إتعاب الفكر والعقل أو كثير من البحث والتمحيص.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين المعروفة بمقدماتها ونتائجها التي اعتمدوا عليها من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في القياس بالمثل (التمثيل) أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء. (كما سبق في بيان تأثير المنطق الأرسطي في البلاغة والبيان).

أ. لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفونه.

ب. ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثرا وأبلغ حجة.

ج. لأن ترك التعبير الجلي والأسلوب الواضح من الكلام الفصيح والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغاز لا يفهمه إلا الخواص، وهو على طريقة المناطقة، ليس سليما من كل وجه. لقد جاء القرآن لينشيء عقيدة التوحيد ويعالج قضايا الإيمان بالغيب، وعقيدة التوحيد كانت قضية ضخمة لهؤلاء الذين يشركون بالله ألهة أخرى، وكان من العجب العاجب عندهم أن يقول لهم أحد: إن الله واحد (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ). (سورة ص: (5-7).

وحين نتناول نحن اليوم هذه القضية ننظر إليها بنظرة أخرى، وربما نسخر من تفكير هذه الطفولة البادية المذكورة في هذه الآية. ولكن يجب ألا نتجاهل كم قرون مضت والإنسانية بدأت تتأدب، لأن هذه القضية كانت قضية مصيريه حاسمة تتعلق بالبقاء والعدم آنذاك، حيث كان التوحيد من العجب العاجب في ذلك الزمان.

وكل من واجههم القرآن بدعوته إلى التوحيد الخالص لم يكونوا من هؤلاء العرب المشركين بالله فحسب، وإنما كان هناك من أهل الكتاب، وهؤلاء كانوا يكرهون أن يأتي دين جديد يقضي على دينهم وينزل على رجل ليس منهم، ولو كان هذا الدين متفقا مع دينهم في الأساس (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به...) وكذلك يجب أن نلاحظ أن هذا الاتفاق كان في أصول الدين، لا في عقائد أهله حينذاك، فهؤلاء اليهود كانوا يقولون: (عزير بن الله) وهؤلاء النصارى كانوا يقولون: (المسيح بن الله) وهؤلاء وأولئك كانوا يقولون: (نحن أبناء الله وأحباؤه) أو (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) كما نرى أقوالهم في القرآن في عدة مناسبات وفي شتى الصور.

وعلى الرغم من أن عقيدة التوحيد من الأمور البديهية اليوم إلا أنها لم تكن سهلة على هذه الإنسانية التي عقليتها كانت تمر بمرحلة الطفولة، والتي تعلقت بشتى مظاهر الطبيعة، وشتى أطياف المجهول، والتي لابست حياتها آلاف الظواهر الخارقة، وآلاف الوجدانات الباطنة أن تتخلى عن هذا التشتيت العميق في ضمائرها، وأن تهرع إلى الإيمان بإله واحد له سلطة عليا على هذه القوي ومظاهر الأعمال الخارقة كلها.

وفي الواقع أن الأديان كلها قبل الإسلام كانت تنادي بعقيدة التوحيد مثلما ينادي بها الدين الإسلامي الحنيف، لكنها قد وجدت من العنت والتمرد مثلما واجه الإسلام، إلا أن الإسلام يدعو إلى التوحيد الخالص والتنزيه المطلق، فواجه ولا يزال يواجه معارضة عنيفة لما استقر في النفوس من عناصر التجسيم والتشبيه في العقيدة عند متبعي الديانات كلها، وخاصة الهندوكية والبوذية والمجوسية أو المزدكية واليهودية والنصرانية وغيرها، فانحرفت وتسببت في إشراك آلهة متعددة في عبادة الإله الواحد، وكانت دعوة القرآن الكريم إلى عقيدة التوحيد الخالص المجرد والمنزه من كل

شوائب التجسيم والتمثيل. ومعلوم أن موطن العقيدة هو الضمير والوجدان، وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس. وما الذهن في هذا المجال سوى منفذ واحد من منافذ كثيرة كما أنه ليس أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقا. (103)

وبعض الناس يبالغون من أهمية هذا الذهن في العصر الحديث بعد أن فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف، حتى بعض رجال الدين من البسطاء الذين تبهرهم هذه الفتنة يؤمن بها ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني أو التجريب العلمي.

إن هؤلاء – حسب اعتقاد سيد قطب – يرفعون الذهن إلى آفاق فوق آفاقه. فالذهن الإنساني خليق بأن يدع للمجهول حصته، وأن يحسب له حسابه. لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية، ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية، وتفتح منافذ المعرفة، (فالمعقول) في عالم الذهن و(المحسوس) في تجارب العلم ليسا هما كل (المعرفة) في عالم النفس وما العقل الإنساني – ولا الذهن وحده – إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة ولن يغلق الإنسان هذه المنافذ على نفسه، إلا وفي نفسه ضيق، وفي قواه انحسار، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشؤون الكبيرة. (104)

واستطرد قائلا: (فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة. فأما العقيدة ففي أفقها العالي هناك، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل البداهة، ويهتدي بهدى البصيرة، ويفتح حسه وقلبه لتلقى الأصداء والأضواء.

ولقد آمن بالبداهة والبصيرة – ولا يزال يؤمن – العدد الأكبر من المؤمنين بكل دين وعقيدة في الوجود، ولقد ظل علماء الكلام في الإسلام قرونا كثيرة يبدؤون

ويعيدون في الجدل الذهني حول مباحث التوحيد فلم يبلغوا بذلك شيئا مما بلغه منهج القرآن الوجداني في بضع سنين.

لقد عمد القرآن دائما إلى لمس البداهة وإيقاظ الإحساس لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاهما إلى الوجدان. وكانت مادته المشاهد المحسوسة والحوادث المنظورة أو المشاهد المشخصة والمصائر المصورة كما كانت مادته الحقائق البديهية الخالدة، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة، والتي تدركها الفطرة المستقيمة.

أما طريقته فكانت الطريقة العامة: طريقة التصوير والتشخيص بالتخييل والتجسيم بمعناها الفني لا بمعناها الديني بطبيعة الحال – إذ الإسلام هو دين عقيدة التنزيه –

كان هذا هو منهج القرآن الوجداني الذي جادل به، وناضل، وكسب المعركة في النهاية.

وفي هذا المنهج اشتركت الألفاظ المعبرة، والتعبيرات المصورة، والصور الشاخصة، والمشاهد الناطقة، والقصص الكثيرة التي يتحدث عنها القرآن.

وكل ما عرض من مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب، يعد في جملة هذا المنهج الذي يلمس الحس ويوقظ الخيال، فيلمس البصيرة ويوقظ الوجدان ويهيئ النفس للاقتناع والإذعان، ثم سلك القرآن طريق الجدل التصويري في منهجه الوجداني الذي نحن بصدده.

كانت القضية الأولى التي واجهها الإسلام قضية التوحيد –كما قلنا– مع جماعة تنكر هذا التوحيد أشد الإنكار وتعده إحدى الأعاجيب الكبار. فلننظر كيف واجههم القرآن في هذه القضية المعقدة، وكيف استعرضها سيد قطب في (التصوير الفني).

لقد تناولها (على حد قوله) ببساطة ويسر وخاطب البداهة والبصيرة بلا تعقيد كلامي ولا جدل ذهني.

والقضية الثانية من قضايا الإيمان بالغيب التي أراد أن يعالجها القرآن قضية البعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجزاء، مع هؤلاء الذين يقولون: (إن إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين) وحكاية البعث كانت من العجب أشد مما كانت حكاية الإيمان بإله واحد. وهؤلاء يظنون أن من يذهب إلى هذه القضايا التي تتعلق بالإيمان بالغيب هو مجنون: (وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبؤكم – إذا مزقتم كل ممزق – إنكم لفي خلق جديد؟ افترى على الله كذبا، أم به جنة؟) فكانوا يتناولون حكاية البعث والنشور بهذا الحد والغرابة، فكيف جادلهم في هذه القضايا الغريبة؟ إن القرآن الكريم عرض عليهم صور الخلق الظاهرة الخفية، وبسط لهم نشأة الحياة في الأرض عامة، وفي الإنسان خاصة ليروا أن الذي بدأ الخلق هو قادر على أن يعيده: (بل هم في لبس من خلق جديد).

فعرض عليهم مشاهد الحياة في الأرض وفي الإنسان بالصور البيانية المعهودة: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [سورة عبس: 17-32] أو بهذه الصور التي يجد فيها كل من يفكر ويعقل في دنياه آيات دالة على الاقتناع:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.﴾ [الروم: 19-24]

فنرى أن القرآن يعرض على هؤلاء دائما مشاهد مألوفة: محسوسة أو معروفة، تطالع حواسهم في كل لحظة، وتواجه بديهتهم في كل نظرة وتتصل بحياتهم ومعاشهم ثم تربط معاشهم بمعادهم، وهكذا تلمس شعورهم ووجدانهم، وتسلك طريقها إلى نفوسهم ببساطة ويسر. وهو يوجههم إلى هذه المشاهد كأنها مشاهد جديدة – وإن مشاهد الطبيعة لجديدة متجددة دائما أبدا عند كل من ينظر إليها بحس مرهف وعيون مفتوحة – دون أن يثير ذلك العرض الجدل الذهني، الذي قد يعتمد على المهارة، أكثر مما يعتمد على الحقيقة – على حد قول سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) ص: 235 ولقد يتخطى القرآن بطريقة التصوير والتمثيل والتخييل كلها حدود منطقة الذهن ومنطقة الحواس جميعها ليتصل مباشرة بمكمن العقيدة، حيث تتصل النفس مباشرة بالمجهول، وتجد في غموضه وبعده عن الحس والذهن ملاذا ومتاعا مجتمعين.(105)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. (سورة النور: 41)

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ ۗ وَاِنْ مِّنْ شَيْءٍ اِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهٖ وَلٰكِنْ لَّا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ ۗ اِنَّهٗ كَانَ حَلِيْمًا غَفُوْرًا﴾ (الإسراء: 44)

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا

سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[غافر: 7-9]

فنرى أنه يوقع هذا التصوير والتخييل في النفس تلك الرهبة التي تحسها أمام المجهول، وتلك اللذة التي تستشعرها وتجول في ذلك العالم المجهول. وهكذا نراه يلمس الوجدان ويملأ النفس بالإيمان بالغيب، والغيب هكذا قد يكون محسوسا رغم أنه مجهول:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ..) (آل عمران: 5-6) فهذا دليل على علمه تعالى بكل خفي. وهو دليل وجداني واقع لا يتعب الذهن في فهمه وتخريجه، ومثل هذا في محيط أوسع وبتصوير أروع.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

ففي هذه الكلمات القلائل، تعبير قوي رهيب عن شمول علم الله، اختير أفضل الألفاظ المعبرة والأدوات المصورة للتعبير والتصوير. وهذا التعبير ليس مجرد تعبير عن معنى علم الله الدقيق الواسع، وإنما صورة بيانية تخييلية مدهشة، نرى فيها أن الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها، ومجاهلها جميعا، ليتبع هذه الأوراق الساقطة، وتلك الحبات المخبوءة المشمولة في مجالها ومخابئها بعلم الله، ثم يرجع إلى النفس، فيغطيها بالجلال والخشوع، ويتوجه بها إلى الله الذي يحيط بعلم هذه المجاهل والآفاق كلها.

ذلك هو المنطق الوجداني والجدل التصويري، وما الذهن إلا قوة صغيرة محدودة. لقد لمس القرآن وجدان الإنسان بطريقة التصوير فبلغ الهدف والغاية، وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أقرب طريق ومن أرفع طريق.

أ. أسلوب القرآن الكريم في التعبير والتصوير

إن للقرآن طريقة موحدة في التعبير يستخدمها في جميع الأغراض على السواء، حتى أغراض البرهنة والجدل. وحين نقوم بتقييم هذه الطريقة والأهداف الدينية التي جاء القرآن لتحقيقها، والموضوعات الإلهية والتشريعية التي تناولها نرى فيها ما من دقة وعظمة وصلاحية ومرونة، وإحاطة وشمول، نحسب أن هذه كلها ميزة القرآن الكبرى، وأن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها. وأن الإعجاز كله كامن فيها، ورغم ذلك نرى أن بعض الجدليين يفرق بين المعاني وطريقة الأداء، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منهما على انفراد. ولكننا نحن نؤيد من يقول: "إن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير، التي أبرزت هذه الأغراض والموضوعات.

وهنا يقول سيد قطب أيضا: فأين منه ذلك الجدل الذهني الذي ظل علماء الكلام يبدئون فيه ويعيدون قرونا من الزمان؟ وقد تناول سيد قطب في هذا الصدد جهود النقاد العرب من البلاغيين بالنقد الشديد واعتبرها المباحث العقيمة حول اللفظ والمعنى قائلا: "وقد استغرقت من النقاد العرب ما استغرقت منذ أن أثارها الجاحظ، الذي قال: إن المعاني مطروحة في الطريق، ثم تابعه في البحث ابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، وأبو هلال العسكري وغيرهم مخالفين ومؤيدين.

ولكنه يحسب أن عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) قد وصل إلى رأي حاسم حين قال إن اللفظ وحده، لا يتصور عاقل أن يدور البحث حوله من حيث كونه لفظا منفردا، وإنما يدور البحث فيه من حيث دلالته على المعنى. وإن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور البحث حوله من حيث هو خاطر في

الضمير. إنما يدور البحث فيه من حيث أنه يتمثل في لفظ. وأن المعنى مقيد في تحديده بالنظم الذي يؤدى به. فلا يمكن أن يختلف النظمان، ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد، ورغم أنه يحسب أسلوب عبد القاهر في قضية اللفظ والمعنى أسلوبا معقدا إلا أنه يعترف بفضله العظيم في تقرير هذه القضية، ويقول: (ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها، لبلغ الذروة في النقد الفني) فنقول: (إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى، وإنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن. وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد.

فيجب أن نلتفت إلى فضل الطريقة التصويرية في القرآن. فهذه الطريقة التي جعلت للمعاني والأغراض والموضوعات القرآنية صورتها التي نراها في ثوبها. ومن هذه الصورة البيانية كانت قيمتها الكبرى.

ب. سمات القرآن الكريم في التعبير والتصوير

إن سمات التعبير والتصوير في القرآن عديدة، وقد تناولها كثير من الأدباء والباحثين مثل الأستاذ سيد قطب الذي تناول هذه السمات بشيء من التفصيل في كتابه: (التصوير الفني في القرآن).

1. يقول سيد قطب: (لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وإبرازها في صور حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية، والأمثال القصصية، ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب، والنماذج الإنسانية. كأنما كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي الذي ينعمها بالحركة المتخيلة.

بهذه الطريقة يخاطب القرآن الحس والوجدان، ويصل إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخيل. ومن الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفدا واحدا من منافذها إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد. ولهذه الطريقة فضلها، ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة، ولكننا نحن الآن نتحدث من الوجهة الفنية، وإن لها لشأن عظيم في القرآن. فوظيفة الفن الأولى إثارة الانفعالات الوجدانية، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه.. وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل.

2. إن المعاني الذهنية والحالات المعنوية، لم تستبدل بها صور فحسب، ولكن أختيرت لها صور حية، وقيست بمقاييس حية ومرت من خلال وسط حي.

فهول الساعة العظيم يصور في ذهول المرضعات عما أرضعن وتخلى الحاملات عن حملهن، وترنح السكارى وما هم بسكارى، ويقاس بمدى فعل الهول في هذه النفوس الآدمية لا بالألفاظ و الأوصاف التجريدية أو يصور في فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه، وفصيلته التي تؤويه حيث يكون (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) فهو يقاس بأثره في النفس الإنسانية لا بالمقاييس الأخرى الوصفية.

فإذا اشتركت الجوامد في تصوير هذا الهول خلعت عليها الحياة أو أشرك معها الأحياء: (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) فهي ترجف كالآدميين. أو (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. والسماء منفطر به) فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب...

وهول الطوفان يصور في الطبيعة، وإلى جانبها يصور في والد وولده: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وإن الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول في الطبيعة: (وتجري بهم في موج كالجبال) فما كان الموج في المشهد إلا إطارا للهول النفسي الذي يفرق بين الابن وأبيه، ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال عادة. وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل في القرآن، تناولها كل من أراد أن يقدم الصور الفنية الساحرة، فيها روح القصة، وفيها تخييل قوي، وفي حاجة إلى ريشة مبدعة، لو أريد تصويرها بالألوان، وإلى عدسة يقظة، لو أريد تصويرها بالحركات.

3. وسمة ثالثة سمة التعبير في القرآن، إن هذه الريشة المبدعة ما مست جامدا إلا نبض بالحياة، ولا عرضت مألوفا إلا بدا جديدا. وتلك قدرة قادرة، ومعجزة ساحرة، كسائر معجزات الحياة:

- الصبح مشهد مألوف مكرور، ولكنه في تعبير القرآن حي لم تشهده من قبل عينان. إنه (الصبح إذا تنفس).
- والليل آن من الزمان معهود، ولكنه في تعبير القرآن حي جديد (والليل إذا يسر) وهو يطلب النهار في سباق جبار (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا).
- والظل ظاهرة تشهد وتعرف، ولكنه في تعبير القرآن نفس تحس وتتصرف: (وظل من يحموم لا بارد ولا كريم).
- والجدار بنية جامدة كالجلمود، ولكنه في تعبير القرآن يحس ويريد: (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه).

- والطير بنية حية، ولكنها مألوفة لا تلفت الإنسان. أما في تعبير القرآن فمشهد رائع يثير الجنان: (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن. وما يمسكهن إلا الرحمن).

والأرض والسماء، والشمس والقمر، والجبال والوديان، والدور العامرة، والآثار الداثرة، والنبات والحيوان، والأشجار والأفنان... كل أولئك أحياء أو مشاهد تخاطب الأحياء. فليس هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأشياء.

تلك طريقة القرآن. وإنها لفن قائم وحده إزاء المعاني والأغراض، وهو في أفقه الرفيع، كفاء تلك المعاني، وصنو هذه الأغراض.

فأدلة الله على توحيده، وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل مستلزمة لمدلولها عينا، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بد في إدراكه لكل العقول.

خاتمة البحث

الخاتمة

وفي ختام حديثنا نقول نحن لا نؤيد هؤلاء الذين يقولون إن العلوم البلاغية لم تمتلئ بالخطأ والتقصير فحسب، بل أخذت وجهة خاطئة منذ بدايتها، فكان من المستحيل أن تنتج شيئا ذا قيمة في تذوق الأدب والكشف عن جماله الحق. هذه العلوم قد دونها في الأغلب رجال من المتكلمين الأعاجم الذين ضعف نصيبهم من السليقة العربية، باقتفاء أثر أرسطو فيما ألف من الشعر والخطابة والمنطق، وتشربوا مما ترجم من الفلسفة اليونانية وما تولد منها، وبني عليها في الحواضر الإسلامية من الفلسفة وعلم الكلام والفقه وأصوله وشتى فروع الجدل الفكري المحض في الثقافة الإسلامية الناشيءة.

أما علوم البلاغة العربية، وخاصة علم المعاني ومباحثها أقرب إلى علمي المنطق والكلام منها إلى أن تكون بحثا بلاغيا، فقل ما نجد في مباحث هذا النوع من العلوم الذي عدوه سيد العلوم البلاغية، وفي (نكاته) التي يتصيدونها ما يشحذ حسا فنيا أو يصقل ذوقا أدبيا أو يلفت إلى سر حقيقي من أسرار البلاغة العربية بل تزيد ذوق المتأدب فسادا وتشويها.

أما علم البيان، وإن دار على وسائل تصويرية صحيحة من تشبيه ومجاز مرسل واستعارة وكناية، فقد نظر نظرة محدودة جدا إلى هذه الوسائل، ولم يكد يفهمها إلا كقوالب جامدة برع في تقييد ظواهرها الشكلية وتسميتها بالمصطلحات.

لأننا نرى أن هؤلاء يجعلون تلك الجهود كلها ضائعة أو يقللون أهميتها سواء كانت تلك الجهود بذلت من الأعاجم أو من العرب لأن العلوم العربية ازدهرت في العصر العباسي بعد أن تمخضت منها الكتب القيمة لهؤلاء الذين حددوا أساسا لعقيدة الإسلام أو نظاما محددا له، ونجحوا في الدفاع ضد الزنادقة والملحدين والمشركين من المزدكية والمانوية والسبئية دفاعا شديد الحيوية، لا نكاد نعرف له مثيلا

قط في تاريخ الفرق الدينية. ولا شك أن الإسلام قد سيطر على ساحات شاسعة إثر فتحه العظيم، وحل محل معتقدات قديمة، وديانات عتيقة، واكتسح تماما آثار الفكر القديم، فاعتنقه كثيرون من اليهود والمسيحيين، وانتشر المزدكيون ومتبعوا المانوية والسبئية بين المسلمين، وقد حملت هذه العناصر الأجنبية أفكارها ومذاهبها التي أثارت العالم الإسلامي. فحاول هؤلاء البلاغيون وعلماء الكلام إقناع خصومهم، واستطاعوا بموهبتهم البارزة في الجدل والمناظرة الانتصار عليهم في النهاية.

وأما القول بأن هذه العلوم قد دونها في الأغلب رجال من المتكلمين الأعاجم الذين ضعف نصيبهم من السليقة العربية، فنحن نشم منه رائحة النزعات الشعوبية، ولكننا لا يمكن أن نقول إن الناقد المعاصر في قوله هذا متأثر بالنزعة الشعوبية بين الفرس والعرب، التي لا وجود لها في العصر الحديث، وإنما الراجح هو أنه متاثر بفكرة الجنس عند (تين) الذي يقصد بالجنس الفطرة الموروثة في الأمة، إذ لكل أمة منحدرة من جنس معين خصائصها الفطرية التي يشترك فيها السلف والخلف دون استثناء. ونجد هذه الفكرة واضحة عند الجاحظ في حديثه عن الأجناس في بعض رسائله، وماثلة عند ابن خلدون في مقدمته، إذ يتحدث عن الجنس العربي وخصائصه وأثرها في حياته السياسية. ويبدو أنها كانت من الأفكار التي شاعت في عصر (تين) فقد كان معاصره (رينان) الذي عاش فيما بين (1823م و1892م) والذي كان يعلي شأنها علوا كبيرا على نحو ما يوضح ذلك كتابه (تاريخ اللغات السامية) الذي يزعم فيه أن الأمم السامية ينقصها الخيال الواسع، والتعمق في الحكم على الأشياء، ويقول إنها تعوزها الفلسفة والآثار الأدبية الممتازة، بخلاف الأمم الآرية التي تمتاز بفلسفاتها وشرائعها الاجتماعية القويمة وفنونها وآدابها الرفيعة.

وهذه النظرية لم تعد تجد لها أنصارا اليوم، وهل الجنس إلا أناس سكنوا إقليما واحدا أخذوا يعيشون فيه معا معيشة تكونت في أثنائها عاداتهم وتشابهت معارفهم، ومن قديم تغير الأجناس والشعوب بعضها على بعض وتنزل جيوش إقليم إقليما آخر، وقد تظل به حقبا، ففكرة الجنس الصافي فكرة خاطئة. وكثيرا ما روج الأوربيون لفكرة أن الجنس الأبيض يتفوق على الجنس الأسود، ليتمكنوا لأنفسهم من استعماره ويحصدوا لأنفسهم ثمار أرضه، وليس البياض والسواد رمز تقدم وتأخر، إنما تطورات الحياة الإنسانية في الأمم، فيجب أن نحذر فكرة الجنس التي أثارها (رينان) وأخذ بها (تين) والتي أخذ بها ابن خلدون، والعرب أنفسهم الذين جعلهم ابن خلدون محورا لحديثه عن الجنس كانوا في الجاهلية يحيون حياة أولية، وأخذت حياتهم بعد الإسلام في التطور، فوضعوا القوانين وأقاموا الدول والمماليك وأصبح لهم فلاسفة ومفكرين عظام، واختلطوا في أثناء ذلك بكثيرين من الأمم والشعوب التي عربوها، حتى غدت كلمة العربي لا تدل على الجنس وإنما تدل على اللغة، فالعربي هو الذي يتخذ العربية أداة للتعبير عن فكره ووجدانه، مهما يكن إقليمه ومهما يكن جنسه الذي ينحدر منه. ومعنى ذلك كله أنه يجب أن نحتاط إزاء هذه الفكرة، تنفيذا لتعاليم نبينا محمد بن عبدالله العربي الواردة في حديثه: (لا فضل لعربي على عجمى ولا لأبيض على أسود ..كلكم من آدم وآدم من تراب).

والحق أن ترجمة الكتب إلى العربية كانت عاملا قويا من العوامل التي دفعت النقد العربي القديم في العصر العباسي إلى الأمام، وذلك لأنه قد انتقلت بترجمتها مظاهر أدبية ونقدية كان لها أثرها في الحركة العقلية للنقد، فوضعت الأصول والنظريات، واستخدم المنطق في الجدل والحوار، وألفت الكتب النقدية التي تذخر بالمناهج العلمية والعقلية التي أسسها النقاد العرب. وقد ظهر أثر ذلك واضحا أيضا في تطور النقد العربي، وخاصة الأثر اليوناني (المنطق والفلسفة) وأول ما ظهر أثرهما

كان عند المتكلمين الذين رأوا حاجتهم الملحة للفلسفة حتى يدفعوا المطاعن عن القرآن الكريم، فاستطاع علماء المسلمين عن طريق دراسة المنطق والفلسفة وبصفة خاصة كتابي (الشعر) و(الخطابة) لأرسطو أن يخرجوا بالنقد العربي من الجو العربي الخالص، إلى آفاق واسعة، فيها كثير من العلل والقياسات العقلية والمنطقية ذات السمات اليونانية، وظهر أثر هذا في القرن الرابع الهجري بوضوح عند قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) وكتاب (نقد النثر) المنسوب إليه، رغم أن مؤلفه هو (ابن وهب) كما ظهر عند الرماني في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) وظهر ذلك عند نقاد القرن الخامس الهجري كالباقلاني في(إعجاز القرآن) وابن سنان الخفاجي في (سر الفصاحة).

ومن أهم العوامل التي أثرت في تطور النقد العربي القديم في العصر العباسي القرآن الكريم، فقد كان له أثرا مباشرا وأثرا غير مباشر، أما الأثر المباشر، فبفضل جهود العلماء الذين تعرضوا لأسلوب القرآن، وبيان جوانبه البيانية، محاولين إعجازه البياني بمقارنة الشعر العربي، وخصائص البيان العربي بصفة عامة، واستخدموا في ذلك الوسائل التي استخدمها نقاد الشعر، بل إن بعض الدراسات القرآنية في القرن الثالث الهجري قد استخدمت من المصطلحات البيانية ما لم يكن شائعا حتى ذلك الوقت في دراسات نقد الشعر مثل كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة، (106) واختلطت مقاييس النقد بالدراسات القرآنية، فاستخدم علماء الإعجاز مصطلحات البديع وأبوابه في كشف بديع أسلوب القرآن للتوصل إلى إعجازه ومن هنا أثر القرآن في مناهج النقاد، ودفعهم إلى بيان أوجه الإعجاز، فأقبلوا على إثبات إعجازه، وسمو بيانه على الشعر العربي، وعقدوا لذلك المقارنات، كما فعل الباقلاني الذي عاب تحكيم البديع في بيان القرآن.(107)

وأما عن الأثر غير المباشر فقد جاء عن طريق ترقيق القرآن لأذواق النقاد، بما جرى به أسلوبه من الصياغة الرائقة والصور الجميلة ذات التشبيهات والاستعارات الرائعة، مما جعل العلماء يستشهدون بصياغته، وتشبيهاته على كل جيل، وصارت شواهد القرآن في مقدمة الشواهد الأدبية في كتب النقد والبلاغة.

ثم إن المذاهب والنظريات تمثل دائما روح عصرها، فالمذهب الكلاسيكي يمثل روح عصره، وقام المذهب الرومانتيكي بعد موته، فلكل عصر منطقه، فالنقد الأدبي القديم أو النقد البلاغي العربي يمثل عصرا له منطقه، والنقد الحديث له منهجه. ولا إنكار أن النقد الأدبي قديما وحديثا قد ازدهر باتصاله بالآداب الغربية كما ازدهرت الآداب العربية باتصالها بالآداب الشرقية، والبحوث الأدبية يجب أن تكون خالية من نزعات الشعوبية والغرور القومي والتعصب الأعمى.

وكذلك نحن لا نوافق على من يقول أن الكتب البلاغية أفسدت الأذواق العربية بدلا من تربيتها وتنميتها، ونقول له يجب ألا نشك في نيئة المتقدمين من النقاد البلاغيين الذين أضافوا إلى المكتبة العربية والإسلامية إضافات جديدة قيمة بجهودهم الضخمة، فبدلا من أن نعترف بعبقريتهم في هذا المضمار، كيف يمكن أن نلومهم ونضعهم في قفص الاتهام بأنهم استخدموا المنطق الأرسطي؟ نعم.. استخدموه ليتمكنوا من الرد على منطق أعداء الإسلام بلسان منطقهم العقلي، ولأن ذلك العصر كان لا يفهم أي منهج سوى المنطق الأرسطي، وكذلك نحن لا نستسلم لمن يتهم بأن الإسلام بعجزه عن أن يسمع أو يقبل أي عنصر من الحياة المدنية والاجتماعية نزع من أرضه كل بذرة للثقافة العقلية، كما قال (رينان) وتحدث تلميذه (جويتيه) بنفس الأسلوب، فيؤكد أن (العقيدة الإسلامية أقل قابلية من أي دين آخر لمبادرات العقل الإنساني)، فلا شيء أكثر خطأ من ذلك. فقد رأينا العقل يدخل مجال العقائد، مثلما دخل المجال الفقهي في الإسلام. بل إن العقل يتفوق

في هذا المجال الأخير لتكوين القياس والاستدلال بالشبه، وفي المجال الأول لتكوين الأدلة البرهانية.

وكذلك نحن لسنا مع هؤلاء الذين يقولون إن الجهود البلاغية مضللة، أو لم تنتج شيئا ذا قيمة، أو جهود ضائعة، ونحن على يقين أن هؤلاء لا يشعرون بخطورة هذه الجمل الضارة الخطيرة للغاية، التي يمكن أن يبتعد بها الدارس المسلم عن كتب المتقدمين القيمة، ولا يلتفت إليها قط إهمالا لتلك الجهود الضخمة التي لم تفقد فاعليتها حتى الآن، لأنها تتناول قضايا الإيمان بالغيب التي كانت ولا تزال قائمة، ولم يقدم المشركون بالله أو الملحدون من الماديين الوجوديين في العصر الحديث – حتى الآن – أي حل مقنع تجاهها سوى إنكار وجود واجب الوجود، كما نرى عند (نيتشة) و (فولتر) و(سارتر) و(كيراكجورد) و(هايدجار) و(كاسبار) و(جبريل مارسل) وغيرهم. ثم هذه الجمل خطيرة جدا، لأنها تهدم بناء الفكر الإسلامي القديم الموروث، ولأنها تتعارض مع هدف المسلمين المنشود الذين يبذلون قصارى جهودهم لإحياء التراث العلمي والثقافي لأمجادهم المسلمين المفكرين العباقرة الذين ساهموا في تأسيس بناء الثقافة الإسلامية بناءا محكما.

ويحق القول بأن العالم الإسلامي قد احتوى على تقليديين وأحرار، محافظين ومجددين، لكن هذه العناصر المتعارضة تعتبر ضرورية لكل مجتمع وفي كل عصر من عصور تاريخ المجتمعات البشرية.

ولا إنكار من أن الإعجاز ليس منحصرا في قضية (اللفظ والمعنى) التي أثارها الجاحظ، وجادل فيها كثير من علماء البلاغة العربية لمدة طويلة، ولكن معرفة هذه القضية مهمة جدا لإدراك التأثير الوجداني في الكلام، لأن التأثير الوجداني لا يمكن تصوره من غير أدوات التعبير والتصوير التي تتكون منها الصور البيانية التي

فَصَّلَ فيها عبد القاهر الجرجاني كلامه بعنوان: (باب النظم والنحو) في كتابه (دلائل الإعجاز).

والذي يقول اليوم إن الجهود البلاغية عقيمة، يجب ألا ينسى مفهوم الأدب في العصر الحديث عند أساتذته الغربيين، الذين قال بعضهم إن الأدب هو: (الجنس والعصر والبيئة) فيجب أن يقوم الأستاذ الناقد بتقييم تلك الجهود البلاغية في عصورها، التي بذلت من قبل علماء البلاغة العربية آنذاك. وكيف نقول إن تلك الجهود عقيمة أو كانت عقيمة وترمي إلى هدف منشود، وهو إغناء العلوم والمعارف والآداب الإسلامية، بل التي تمخضت منها العلوم العربية والإسلامية وازدهرت، حتى بدأت تعرف بها تلك العصور بعصور نهضاتها الزاهية. فلكل عصر منطقه الخاص، ولكل مذهب تعبيره الخاص لتصوير حالة نفسية معينة لذلك العصر.

فنحن نشكر لهؤلاء العلماء العباقرة ونعترف بفضلهم الذين ساهموا في وضع حجر أساس للفلسفة الإسلامية، وخاصة ابن سيناء والفارابي والكندي وابن رشد وقدامة بن جعفر وابن وهب والجاحظ والعسكري والباقلاني والروماني والجرجاني وغيرهم من علماء البلاغة وعلم الكلام الإسلامي، سواء كانوا من المعتزلة أو من الأشاعرة، الذين انتصروا على خصومهم بمنطقهم العقلي ومنهجهم الجدلي، وحافظوا على عقيدة دينهم الإسلامي الحنيف بسلاحهم المنطقي، وكانت لهم مواقف جليلة وبصمات واضحة في حماية كيان دينهم الإسلامي، والدفاع عن عقيدتهم بكل إخلاص وحماس وأمانة وغيرة إيمانية تتجلى من كل كلمة خرجت من ألسنتهم وأقلامهم.

الهوامش

1. ضيف. شوقي. العصر الجاهلي. ص: 17، وحسن. على إبراهيم. التاريخ الإسلامي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص: 23
2. حسن. على إبراهيم. (1971م). التار ـ لامي العام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص: 24-25
3. المرجع السابق، جـ1،2، ، ص: 27
4. Hitti ph: History of the Arabs, p. 37
5. ضيف. شوقي. العصر الجاهلي. ص: 39. (مجلة الثقافة، فبراير 1979)
6. Nicholson: Literary History of Arabs. p.30
7. خان. عبد المعيد. الأساطير العربية قبل الإسلام. ص: 3، والتاريخ الإسلامي. ص: 29
8. الجاحظ. الحيوان. القاهرة: طبعة الحلبي. جـ1، ص: 274
9. العصر الجاهلي ص: 38
10. سورة يوسف: 100
11. زيدان. جرجي. (1922م). العرب قبل الإسلام. القاهرة: ص: 41-42
12. ماجد. عبد المنعم. التاريخ السياسي للدولة العربية. ص: 46-47. Noldeke: history of the world, vol. 8. p. 4.
13. العصر الجاهلي. ص: 30
14. التاريخ الإسلامي العام. ص: 35
15. زيدان. جرجي. العرب قبل الإسلام. ص: 37
16. التاريخ الإسلامي العام. ص: 32
17. زيدان. جرجي. العرب قبل الإسلام. ص: 38
18. التاريخ الإسلامي العام. ص: 34
19. الأدب العربي: طاهر عبد اللطيف عوض ص: 44

20. حسن. علي. إبراهيم. التاريخ الإسلامي العام. ص: 34

21. أمين. أحمد. ضحى الإسلام. ج1، ص: 171

22. العصر الجاهلي. ص: 59-60

23. Clhuart; journal Asiatique, 1913 p.216

24. العصر الجاهلي. ص 61-62

25. خان. محمد عبد المعيد. الأساطير العربية قبل الإسلام. ص: 97

26. مختصر السيرة لابن هشام. ص: 58-59

27. الأساطير العربية قبل الإسلام. ص: 109-112

28. العصر الجاهلي. ص: 92-93

29. المرجع السابق. ص: 93-94

30. فقه السيرة النبوية. ص: 30، عن الملل والنحل للشهرستاني. ص: ج2، ص: 86-87

31. الندوي. أبو الحسن، علي، الحسني. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. ص: 28

32. سورة البقرة ص: 198/2

33. سورة الجمعة: 2/62

34. اعتمدنا على سيرة ابن هشام ج1ص: 1،2، و"رحمة للعالمين ج2، ص: 11، 12، 13، 14، والطبري. ج2، ص:271، 272، 273، 274، 275، 276

35. هناك اختلاف في النطق والتلفظ ببعض هذه الأسماء، وكذلك سقطت بعض الأسماء من حيث الترتيب في بعض كتب المراجع، وهي: سيرة ابن هشام ج1ص 4،2،3 ورحمة للعالمين ج2، ص18، والطبري ج2، ص: 271.

36. علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية. ص: 105.

37. ابن هشام. مختصر السيرة. ص: 88.

38. علي إبراهيم حسن. التاريخ الإسلامي العام. ص: 106

39. المرجع السابق، ص: 106

40. ابن هشامز مختصر السيرة. ج1ص: 137، 138

41. المرجع السابق، ص: 23

42. التاريخ الإسلامي العام، ص: 57

43. الرحيق المختوم ص: 51

44. التاريخ الإسلامي العام، ص: 58

45. شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص: 149.

46. ابن هشام ج1، ص: 151-155، ورحمة للعالمين، ج2، ص: 89-90.

47. رحمة للعالمين، ج1، ص: 38- 39

48. حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسي، ج1، ص: 72.

49. صحيح مسلم، باب الإسراء، ج1، ص: 923

50. مختصر السيرة لابن هشام، ج1 ص: 168

51. سورة الضحى، آية: 6-11

52. مختصر السيرة لابن هشام ج1 ص: 105

53. المرجع السابق، ج1، ص: 106

54. حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص: 328-329، والتاريخ الإسلامي العام لعلي إبراهيم حسن. ص: 108

55. ابن هشام، ج1 ص: 187-188، رسول الرحمة، لأبي الكلام آزاد، ص: 70-71

56. علي إبراهيم حسن: نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب، ص: 21-22.

57. مختصر السيرة لابن هشام، ج1، ص: 189-190.

58. المرجع السابق، ج1، ص: 190-191.

59. المرجع السابق، ص: 71

60. المرجع السابق، ص: 72

61. سورة العلق، آية: 1-5

62. مختصر السيرة لابن هشام، ج1 ص: 238، والطبري ج2، ص: 302

63. سورة المدثر: آية رقم 1-8

64. مختصر السيرة لابن هشام ج1 ص: 245، 246

65. ابن أثير. أسد الغابة. ج2، ص: 249، 252

66. ابن جرير الطبري. ج2، ص: 372

67. ابن هشام السيرة ج2، ص:106 والطبري ج2، ص: 373

68. ابن كثير، السيرة ج2، ص:232 ص: 166

69. رحمة للعالمين ج1، ص: 95

70. ابن هشام ج2، ص:106-109، و الطبقات الكبرى لابن سعد ج1، ص: 228

71. ابن هشام السيرة ج2، ص:109، والطبقات الكبرى لابن سعد. ج1، ص: 228، وابن كثير السيرة ج2، ص: 234

72. صحيح البخاري "باب مناقب المهاجرين وفضلهم" من كتاب الفضائل ج7 ص: 8، وصحيح مسلم باب فضائل أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) كتاب فضائل الصحابة، ج15، ص: 149

73. صحيح البخاري ج4/ص: 258، والطبقات الكبرى لابن سعد في ج2، ص: 4 وغيره من كتب السيرة.

74. لامية العرب للشنفرى، ص:11

75. حياة محمد للأستاذ محمد حسن هيكل ص:161

76. سورة البقرة آية:217

77. رحمة للعالمين بالأردية ج2، ص: 244- 264

78. رسول الرحمة، ص:756

79. Book of facts p. 614

80. الطبري ج3، ص:150-152

81. ضيف. شوقي. البحث الأدبي. القاهرة: دار المعارف. ص:81.

82. المرجع نفسه ص:82-83

83. مجلة الثقافة عدد خاص عن ذكرى يوسف السباعي، فبراير 1979م

84. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

85. محمد مندور. الأدب وفنونه نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة. ص: 6

86. مجلة الثقافة عدد خاص عن يوسف السباعي، فبراير 1979م

87. نفح الطيب ج1 ص:250.

88. مجلة الثقافة عدد 65 فبراير 1979 القاهرة.

89. أحمد أمين. (بدون تاريخ). ضحي الإسلام ج1 ص: 274.

90. ابن خلدون. (بدون تاريخ). المقدمة. ص: 500.

91. نظرية الجرجاني في أسرار البلاغة ص. 69.

92. محمد مندور. (بدون تاريخ). النقد المنهجى عند العرب. ص: 54.

93. إلى طه حسين ص: 87.

94. النقد الأدبي عند اليونان. ص: 246

95. مجلة الثقافة عدد خاص عن يوسف السباعي، فبراير 1979م

96. الرافعي. مصطفي صادق. (1990م). إعجاز القرآن. بيروت: دار الكتاب العربي. ص: 256

97. مناع القطان. (1973م). مباحث في علوم القرآن. مطبعة منشورات العصر الحديث. ص:261

98. الزرقاني. عبد العظيم. (بدون تاريخ). مناهل العرفان في علوم القرآن. صفحة 412 – 413.

99. محمد. شرف. حفني. (بدون تاريخ). إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق. ص: 109.

100. مناع القطان. علوم القرآن. ص: 260.

101. إبن وهب. البرهان ص: 101 وبعدها، ج.2.

102. مناع القطان. مباحث في علوم القرآن. منشورات العصر الحديث.ص: 267

103. الباقلاني. أبو بكر محمد بن الطيب. (1991م). علوم القرآن. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى. ص: 72.57

104. سيد قطب. التصوير الفني في القرآن. ص: 227– 228.

105. المرجع نفسه ص: 235

106. محمد زعلول سلام. أثر القرآن في تطور النقد العربي. القاهرة: ط. دار المعارف. ص: 101

107. عفيفي. رفعت زكى محمود. (1990م). من مظاهر النقد الأدبي عند العرب. القاهرة: دار الطباعة المحمدية. ص: 120

فهرس المصادر والمراجع

أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. (1991م). **علوم القرآن**. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى.

أبو الحسن علي الندوي الحسني. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**. القاهرة.

أبو الكلام آزاد. **رسول الرحمة**. الهند.

ابن أثير. **أسد الغابة**. بيروت: دار الكتب العربية.

ابن جرير الطبري. **تاريخ الطبري**. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن خلدون. **المقدمة**. بيروت: دار الكتب العربية

ابن سعد. **الطبقات الكبرى**. بيروت: دار الكتب العربية

ابن كثير. **السيرة النبوية**. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن هشام. **مختصر السيرة**. بيروت: دار الكتب العربية.

ابن وهب. **البرهان**. القاهرة.

أحمد أمين. **ضحى الإسلام**. القاهرة.

الجاحظ. **الحيوان**. القاهرة: طبعة الحلبي.

جرجي زيدان. (1922م). **العرب قبل الإسلام**. القاهرة.

رفعت زكى محمود عفيفي. (1990م). **من مظاهر النقد الأدبي عند العرب**. القاهرة: دار الطباعة المحمدية.

سيد قطب. **التصوير الفني في القرآن**. القاهرة: دار الشروق

شرف حفني محمد. **إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**. القاهرة.

الشنفرى. **لامية العرب**. القاهرة.

الشهرستاني. **الملل والنحل**. بيروات: دار الكتاب العربي.

شوقي ضيف. **العصر الجاهلي**. القاهرة.

شوقي ضيف. **تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي**. القاهرة.

صفي الرحمن المباركفوري. **الرحيق المختوم**. السعودية.

طاهر عبد اللطيف عوض. **الأدب العربي**. القاهرة.

عبد العظيم الزرقاني. **مناهل العرفان في علوم القرآن**. القاهرة.

عبد المعيد خان. **الأساطير العربية قبل الإسلام**. القاهرة.
عبد المنعم ماجد. **التاريخ السياسي للدولة العربية**. القاهرة.
على إبراهيم حسن. **التاريخ الإسلامي**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
على إبراهيم حسن. (1971م). **التاريخ الإسلامي العام**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
علي إبراهيم حسن. **النظم الإسلامية**. القاهرة.
علي إبراهيم حسن. **نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب**. القاهرة.
محمد بن إسماعيل البخاري. **صحيح البخاري**. بيروت: دار الفكر.
محمد حسن هيكل. **حياة محمد**. القاهرة: مكتبة نهضة مصر.
محمد زعلول سلام. **أثر القرآن في تطور النقد العربي**. القاهرة: ط. دار المعارف. محمد سعيد رمضان البوطي. **فقه السيرة النبوية**. دمشق.
محمد مندور. **النقد المنهجى عند العرب**. القاهرة
محمد مندور. **الأدب وفنونه**. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة.
مجلة الثقافة عدد خاص عن ذكرى يوسف السباعي، فبراير 1979م
مسلم النيسابوري. **صحيح مسلم**. بيروت: دار الفكر.
مصطفي صادق الرافعي. (1990م). **إعجاز القرآن**. بيروت: دار الكتاب العربي.
مناع القطان. (1973م). **مباحث في علوم القرآن**. مطبعة منشورات العصر الحديث.
Book of facts
Clhuart; journal Asiatique, 1913
Hitti ph: History of the Arabs, p. 37
Nicholson: Literary History of Arabs.
Noldeke: history of the world, vol. 8.